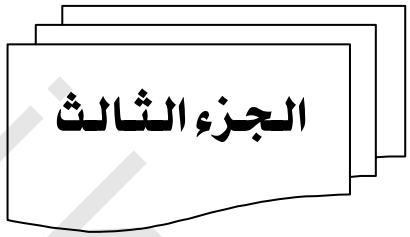

التاريخ: شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٢

المكان: عاصمة الغدر والعنصرية - طـهران

الموقع: معسكر دوژبـان مركز

الزنزانة: قفص تسفيرات الأسرى العراقيين

obeikan.com

obeikan.com

وصلنا إلى طهران عاصمة الشعوذة والدجل بعد غروب الشمس بقليل، وترجلنا في ساحة توقف حافلات النقل بالقرب من ساحة الحرية ميدان آزادي، وهناك تجمهر بعض الناس لغرابة المشهد الذي كنا عليه.. اثنان من الجنود الإيرانيين بكامل سلاحهم يقتادون شخصًا يرتدي الزي الكردي الخاص للحزب الديمقراطي الكوردستاني، ومكبلاً من يديه بالأصفاد، الأمر الذي استشعر فيه حراسي بالريبة أو الخطر، فوضعوني على عجل في سيارة تاكسي وانطلقوا بي إلى داخل شوارع المدينة طهران...

وشاءت الصدفة أن نمر بخيابان ناصر خسرو وهو شارع مشهور بوسط المدينة، حيث كنت وباقي أهلي قد نزلنا بإحدى فنادقه أثناء زيارتنا السياحية لإيران في الشهر الأول من عام ١٩٦٨، ولزحمة السير تيسر لي أن أتطلع بوجوه الناس عن قرب، فوجدتها شاحبة وليست مثل أخر مرة تواجدت فيها هناك، حينما كان أحدهم يتمشى وهو يرتدي أرقى الملابس الأنيقة معتمرًا قبعته الباريسية المستوردة، متنقلاً بين المحلات التجارية ذات الأنوار البراقة ليتبضع أي شيء يخطر على باله، وما أراه الآن وقد حل الدمار باختفاء كل تلك المعالم البهيجة وحل محلها شبح الموت بهذه المشاهد السوداوية التي تبعث بالكآبة على نفوس ناظريها، وأثناء هذا وذاك من مشاهد قارنت بها بين وضعي الحالي الذي كنت عليه وأنا مكبل ومنقاد إلى مصير مجهول، وبين حالي أيام كنت شابًا يافعًا قبل أربعة عشر سنة خلت عندما كنت أتنقل مع أخي الأكبر لؤي النورسي بنفس ذاك الشارع الذي كان يسر ناظريه، وشتان ما بين السببين اللذين جعلاني متواجدًا على تلك الرقعة من الأرض في الزمان المختلف كليًا، وأنا مندهش كليًا من تلك الصدفة.

ظللنا نسير حتى وصلنا إلى معسكر يقع بوسط العاصمة، وترجلنا من سيارة التاكسي لندخل إلى دائرة استعلاماته، وهناك سلمني حراسي بعد أن أوصوا بي خيرًا ضابط الاستعلامات الخفر لحسن سلوكي معهم أثناء تلك الرحلة الطويلة ومضوا عائدين إلى معسكرهم بسنندج، وقد علمت لاحقًا أن ذلك المعسكر خاص بالمقر العام لدائرة الانضباط العسكري للجيش الإيراني، الذي هو مختص لإدارة شؤون الأسرى العراقيين...

منذ اللحظة الأولى التي تمَّ فيها استلامي لاحظت فرقًا شاسعًا بالمعاملة التي اتسمت من بداياتها بالعنف والسوء المقصود من قبل حراسي الجدد، باستثناء ضابط الاستعلامات الخفر الذي تعاطف معي بحذر بعد أن كلمته ببعض المفردات التي تعلمتها مؤخرًا من اللغة الفارسية، فأخبرني أنه سيرحم حالي ويرسلني إلى زنزانة ألتقي بها بعراقيين مثلي، أستأنس بوجودهم بدلاً من تلك الزنازين الانفرادية، التي علمت لاحقًا أنني لو كنت قد ذهبت إليها لأصبحت ضائعًا منسيًا خارج دائرة المعرفة بكل شيء، وعندها لن يسأل عني أحد من المحققين أو أي جهة معنية بأمر التهمة الكيدية التي ألصقها بي الپاسدار بسبب رفضي الانضمام لتشكيلات المرتزقة من فيلق بدر وحزب الدعوة من خلال الجهد العسكري الخياني الذي يقومون به ضد العراق، لصالح العدو الإيراني، صاحب مشروع احتلال العراق تحت مسمى شعارهم بتصدير ثورتهم الخبيثة للعراق..

بعد انتهاء محادثتنا القصيرة؛ أمر ذلك الضابط أحد الجنود بغرض إيصالي إلى خارج الاستعلامات، حيث تتواجد مفرزة من الجنود من أجل اقتيادي إلى قفص أسري هذه المرة، فسحبني ذلك الجندي الإيراني بقوة من يداي وفتح بابًا كان مطلاً على ساحة خلفية، ودفعني بشكل همجي من غير سابق إنذار إلى مفرزة مكونة من عشرة جنود صبية يافعين، وهم بدورهم أشهروا على الفور بنادقهم المحشوة بالرصاص وصوبوها إلى صدري وهم يصرخون بأعلى صوتهم بكلام

لم أفهم معنى له، ولكني تيقنت أنها كانت ألفاظًا لكلمات نابية، كان الغرض منها استفزازي أو إخافتي، وهم أبعد ما يعلمون أني كنت أطلب الشهادة وأتمناها وأنا بذلك الحال المهين، لأنها أفضل من العيش بينهم، فاحترت ماذا أعمل؟ وما المطلوب مني أن أفعله لكي يكفوا عن صراخهم؟.

أشاروا إلي أن أرفع يديَّ المكبلتين للأعلى فرفعتهما، ثم أشاروا بالتقدم، ففعلت، بعدها تجمعوا كلهم من خلفي وصراخهم قد ملأ سكون المكان ضجيجًا، فمشينا على ذلك المنوال حتى وصلنا إلى مفترق طرق بذلك المعسكر الكبير وهم من خلفي يصوبون بنادقهم نحوي، التفت إليهم لأستعلم ما هي الخطوة التالية، فعلا صراخهم وهم يصوبون فوهات بنادقهم إلى رأسي هذه المرة ويأمرونني بالسير إلى الأمام.

مضيت وسط تلك الجوقة من الصبيان الذين لا يصلحوا حتى أن يكونوا فرقة للكشافة، مضيت قدمًا بالسير وأنا أسخر من قدري، وقد تعجبت حقًا من ذلك المشهد الذي كنت فيه مكبلاً بالقيود وسط عشرة من جنود الشطرنج بداخل أسوار معسكرهم الكائن بوسط عاصمتهم اللعينة، وهم بصرخاتهم تلك التي تعني لدي كعسكري قديم أن مطلقيها على ذلك النحو كانوا يطردون الخوف من داخلهم، لِما كان للعراقي من شأن يخشوه بداخل نفوسهم الخبيثة، وكلما على صراخهم فإن ذلك يعني أن خوفهم كان قد ازداد، وذلك نفس ما فعله الجنود الأمريكان أثناء مداهماتهم للبيوت الآمنة لأهلنا العراقيين أيام احتلالهم للعراق، وأعتقد أن هناك سببًا آخر لذلك النباح، فهم يعتقدون خاسئين أن ذلك سيرهبني ويبث الرعب في نفسي، وبالتالي فإنهم سوف يتلذذون بما قد يرونه من خشيتي منهم، وفي كلتا الحالتين فمن يُطلق مثل تلك الصرخات التي تشبه إلى حد ما طلق النساء عند الولادة، فهو بالتأكيد جبان رعديد، فما بالكم ومطلقها هو فارسي جبان.

على أية حال بالرغم من خطورة تلك اللعبة الصبيانية؛ إلا أنني التزمت الهدوء بتصرفي، لأن ما كان يشغل بالي وقتها خشيتي من أن تكون زنزانتي الجديدة هي خاتمة المطاف، لأنتهي بإحدى تلك الأقفاص البشعة التي يتواجد فيها إخوتي العراقيين، واستمرينا بالمشي على ذلك المنوال حتى وصلنا إلى بوابة بناية كبيرة من طابق واحد، كان يصدر منها ضجيج لتجمهر كبير يُشبه ذلك الذي كنا نسمعه من جمهور لعبة كرة القدم، أثناء تشجيعهم لفريقهم في الملاعب، وذلك يعني أن عدد الناس الذين كانوا بداخلها أكثر من أن يتسع لهم ذلك المكان!

توقفنا عند بوابة تلك البناية وخرج إلينا اثنان من الجنود غير المسلحين، بعد أن فتح بعض الحراس المسلحين من المتواجدين في الخارج البوابة لهم، وأدخلوني إليها ثم أقفلوا الباب من خلفنا، يعني من قبل الحراس في الخارج، وحينها وجدت نفسي مقابل غرفة استعلامات داخلية للحرس، وعلى يمينها قاعة كبيرة، وعلى يسارها قاعة أخرى أصغر بقليل، وكليهما مليئة بأخواتي الأسرى العراقيين الذين كانوا يرتدون زيًا موحدًا لبدلة متهرئة باللون الجوزي، وبعد أن تمَّ تفتيشي من قبل الحراس الداخليين، الذين صادروا بعض القطع من ملبسي للزي الكردي الذي كنت أرتديه، مثل الحزام (البشتين) وغطاء الرأس (الجامانه) وحتى الحذاء الذي زودوني بنعل بلاستيكي ممزق بدلاً منه لاعتقادهم أن تلك الأشياء قد تستعمل لخنق الآخرين إن لم يكونوا هم المقصودين بالخنق، بعدها تركوا لي الخيار أن أذهب يمنة أو يسرة لإحدى القاعتين.

أثناء ذلك كانت جموع إخوتي الأسرى تترقب انتهاء تلك الإجراءات الاحترازية بحقي من أجل أن يرحبوا بي ويأخذوني بالأحضان كما فعلوا لاحقًا.. مضيت إلى القاعة التي كانت على يساري لقربها، وهناك تواجهت مع إخوتي الأسرى العراقيين، وانتابتني مشاعر الفرحة الغامرة، وأخذت أتطلع لوجوههم التي

تبسمت لي، وأغرورقت عيوني بالدموع من شدة تأثري بذلك اللقاء الحميم، الذي لا أستحي عندما أصف نفسي فيه بأني كنت أبدو قزمًا صغيرًا وأنا بحضرة أولئك العمالقة، الذي قاموا بواجبهم الوطني بكل شرف أثناء الدفاع عن العراق، وليس عن نظام الحكم القائم آنذاك كما يشيع بعض المدلسين في أيامنا هذه، من أجل تبرير ذلك العدوان الفارسي اللئيم على العراق.

انتظروا حتى انصرف الحراس عنا إلى داخل غرفة استعلاماتهم وأحاطوني بسيل من الكلمات الأخوية الودية للغاية، دون أن يسألوني عن سبب تلك الهيئة التي كنت عليها في ملبسي بعد أن تكلمت بالعربية معهم، وأنا أتعرف عليهم الواحد تلو الآخر، وقد ظنوا ببادئ الأمر أني كنت ضمن المقاتلين الأكراد الذين تجحفلوا للقتال مع بعض التشكيلات العسكرية للجيش العراقي بجبهة القتال لقاطع العمليات الشمالية، وبعد أن عرفوا حقيقة أمري بشكل عام فسروا سبب تواجدي معهم باعتباري كنت عسكريًا في الجيش العراقي، وقد أصابوا بتخمينهم لأن الفرس لا يميزون بين من كان في الخدمة العسكرية وتركها لسبب أو لآخر وبين من كان يقاتلهم، لأن الاثنين في نظرهم على حد سواء، فهم عسكريون من جيش معادي واحد.

كان من بين الأسرى الأكثر حضورًا الأسير حلمي، وكان يمثل همزة الوصل بين الإدارة ورفاقه الأسرى بكلا القاعتين اللتين كان بالإمكان التنقل بينهما، لأنه كان يحمل صفة المترجم والأرشد بنفس الوقت، باعتباره كان يجيد التحدث باللغة الفارسية إضافة للغته الأم الكوردية وللعربية أيضًا، وهو شخص محترم وعراقي وطني شريف كان يقطن بمحافظة السليمانية قبل أن يقع بالأسر. وكان من أشد خصومه من بقية الأسرى أولئك الذين خانوا رفاقهم أثناء خضم المعارك، أو تغيروا ليركبوا الموجة الفارسية بعد أسرهم، وسآتي على ذكر

جميع تفاصيل أصناف الأسرى تباعًا، لأنها شهادة نابعة من ضمير حي ووجدان يقظ، لكي يسجلها التاريخ كأمانة لا بد لي من توثيقها.

حينها فرحت للقائهم بعد تلك الفترة من التجوال وحيدًا في الزنازين الإيرانية، بعد أن التقيت بأشكال شتى من البشر على مدى رحلتي التعسة هذه، من: پاسدار حرس ثوري وجنود إيرانيين وكورد إيرانيين من أهل المروءة والشهامة، وكورد عراقيين، لرفاق تخلوا عني، وعرب عراقيين خونة، من حزب الدعوة وجنود عربستانيين منصفين ومتعاطفين، ثم مساجين إيرانيين بمختلف الأشكال، ناهيك عن التحقيق السقيم لدى الاستخبارات – الإطلاعات الإيرانية – وبنفس تلك اللحظة من ذلك اللقاء الحميم بأخواتي الأسرى العراقيون حزنت كثيرًا لما انتهى عليه حالي، وبما آل إليه مصيري، على الرغم من كل الاجتهادات التي سعيت بها من باب حق الاحتيال على العدو بزمن الحرب، والأسر هو جُل ما كنت أخشاه حتى ولو بفكرة عابرة كانت تخطر على بالي طوال الفترة الماضية، وقد أصبحت الآن حقيقة وضاع كل أمل لي باستردادي لحريتي التي سلبها ذلك الپاسدار اللعين بمريوان قبل أن أتمكن من الهرب والعودة لوطني العراق.. فسلمت أمري لله عز وجل وهو خير معين.

كان أول ما تبادر لذهن مترجم الأسرى حلمي هو سؤاله لي إن كنت قد مكثت لفترة في تلك الزنازين الانفرادية للأسرى في الجانب الآخر من نفس هذا المعسكر، باعتباره أمر كان متبعًا من قبل إدارة ذلك المعسكر، للتحقيق مع بعض الأسرى، وليس كلهم من أولئك المأسورين للتو من جبهات القتال، أو من الذين يأتوا من الأقفاص الدائمة للأسرى المنتشرة بشمال ووسط إيران، ومنها معسكر الداودي.. حشمتية.. برندك.. قصر زندان.. مشهد.. ومعسكر گورگان بأقصى الشمال وهو الذي قتل فيه مجموعة كبيرة من الأسرى العراقيين من

قبل حراسهم المتهورين أثناء نقلهم من قفص لآخر، باعتبار أن سجني هذا هو القفص المخصص للتسفيرات فقط، فأخبرته أني قد جئت إليهم مباشرة بعد أن أمضيت فترة بقضاء مريوان، وأخرى بمحافظة سنندج لغرض التحقيق.. فقال حلمي:

– يظهر أن محققي الاستخبارات أو الاطلاعات قد حسموا أمرك، ولم يعد هناك من حاجة لتحقيق آخر معك في الزنازين الانفرادية للأسرى..

فقلت:

– حسبي الله ونعم الوكيل.

وأثناء تلك الجلسة مع إخوتي الأسرى العراقيين؛ قدموا لي ما تيسر عندهم من طعام كانوا قد ادخروه من وجبة طعامهم الوحيدة بظهيرة كل يوم، بعد أن علموا أني لم آكل أي شيء طيلة ذلك اليوم الشاق، فأكلت ما جمعوه لي من فتات الخبز مع شربة ماء لكي أسد رمقي، وأنا خجل من نفسي بحضرة هؤلاء الأبطال الذين أسروا لأنهم كانوا يقاتلون دفاعًا عن مبدأ مشروع بالحفاظ عن حدود الوطن، في الوقت الذي كنت أنا تائهًا بعد أن فقدت بوصلتي وبعد أن اجتهدت بخدمة شعبي الكوردي، ولم أتمكن من تحقيق أي فعل حقيقي بذلك الاتجاه، وعندما تيقنت وعلمت ما علمته كان الوقت قد مضى بي ولا مجال للاستدراك بعد أن أصبحت نزيل زنازين الفرس.

بعد ذلك اللقاء الحميم جلب لي أخي حلمي من الإدارة التعيين الخاص بالأسير من الأغطية، وكانت بطانيتين قديمتين يسكنهما جيش من القمل الفارسي، وهو أشد إيذائًا من القمل المتواجد عادة بسجون العراق، ولله بخلقه شؤون، ففرشت واحدة على أرضية القاعة والتحفت بالثانية، عندما أعطى الحراس الأمر للنوم الإجباري وكنا في الساعة الثامنة مساءً، وأطفأت الأنوار وأصبحنا بحالة يسميها

الفرس (خاموش) وتعني الظلام، ومُنع الكلام والتنقل بين القاعتين، وتواجد بكل منهما حارس يحمل العصي من أجل تنفيذ أمر النوم الإجباري، ومراقبة الأسرى إن كان أحدهم يبغي شرًا بأحد زملائه من باقي الأسرى، أو بالإدارة المتواجدة بداخل القفص، فتوسدت بنعلي الممزقين من تحت رأسي ونمت من شدة الإرهاق والتعب، والألم يعتصر فؤادي وكأنه كان يقطر دمًا، لأصحى بوقت الفجر على ضربات الحرس المناوب بخفارته بعصاه التي كان يمررها بقسوة على أرجل كل الأسرى النيام بشكل مؤلم بغرض إيقاظهم لبدء يوم جديد من أيام يكاد يكون أحدها وكأنه الدهر بأكمله..

قبل أن يأتيني الدور هممت لأنهض واقفًا على طولي قبل أن تنالني واحدة من تلك الضربات اللئيمة الجبانة، فإذا كان النوم بوقت الفجر عزيزًا، فالكرامة أعز، خصوصًا عندما يكون صاحب ذلك الفعل المشين هو فارسي جبان.. وليس عراقيًا ابن بلدي حتى لو كان ظالمًا، وبعد أن صحى جميع الأسرى تمَّ تعدادهم باصطفاف خاص من قبل أمر حارس القفص الفارسي المدعو أيرج، وهو ضابط صف متعجرف وحاقد بشكل لا يوصف، مع ثلة من أعوانه الجنود الذين هم على نفس شاكلته العنصرية، وحينها يتم إحصاء الأسرى بكلتا القاعتين، وكانوا ١٢٠ أسيرًا من المثبتين في ذلك القفص لغرض الاستفادة منهم بأعمال السخرة التي كانوا يمارسونها يوميًا خارج القفص، بحسب حاجة المنشأت بذلك المعسكر الكبير من أعمال تنظيف وخدمات أخرى، إضافة إلى المتفرقة من باقي الأسرى الذين قدموا إلى طهران من معسكرات أسرهم الثابتة البعيدة منها والقريبة، لغرض مراجعة المستوصف الخاص بالأسرى والكائن بنفس هذا المعسكر، وهم لا يعدوا سوى أفراد قلة يتبدلون باستمرار بين قادم ومغادر لنا، وبذلك فإن معدل عدد الأسرى في الأيام الاعتيادية هو ١٢٠ إلى ١٣٠ أسيرًا، وذلك يعني طبعًا أن مساحة الأسير الواحد للجلوس أو النوم في كلا القاعتين

كانت متر مربع واحد وهذا العدد بالطبع لم يشمل الأسرى الذين أسروا للتو في جبهات القتال، وإن كان مرورهم إلى قفصنا هذا هو حتمي لأنهم سيوزعون بعدها على باقي المعسكرات الدائمة بشكل عاجل حتى لو كان عددهم كبيرًا... وعادة ما يبدأ التعداد الصباحي بطقوس ترديد نشيد فارسي لعين يُجبر على ترديده إخوتي الأسرى العراقيين باللغة الفارسية وكالآتي: خودايا خودايا هتا انقلاب مهدي خميني راجنگهدار؟ أو: ره هبه ر.. والترجمة الحرفية لذلك الشعار البائس هو: إلهي إلهي حتى ثورة المهدي، خميني هو العظيم (أو شيئًا من هذا القبيل)، وفي بعض الأحيان يستبدل بعض إخوانكم الأسرى الأبطال عبارة: "خميني راجنگهدار" بكلمة: "خميني قشمر" العراقية، وعلى أثرها ينالوا العذاب الأليم عندما يوشي بهم بعض ضعفاء النفوس من الأسرى من أجل كسب رضا الإدارة عنهم، بغرض تزويدهم أثناء وجبة الطعام الوحيدة برغيف خبز إضافي.. فألغي ذلك الشعار النتن باللغة الفارسية فيما بعد وتم استبداله بواحد آخر باللغة العربية وكالآتي: إلهي إلهي حتى ظهور المهدي احفظ لنا الخميني!!..

تصوروا أن أسيرًا يذق كل يوم الإهانة والعذاب من قبل صعاليك ذلك الخميني الخرف ويُطلب منه أن يدعوا الله أن يحفظه، أو يعظمه وهو يذيقه مرَّ العذاب وبذات الوقت هو ماضي بهجومه على بلده تحت شعار تصدير الثورة الحمقاء.. أية سفالة تلك التي كان ينتهجها الفرس بحق أولادنا هناك؟! وبعد أن ينتهي ذلك التعداد الصباحي الذي لم أكن من ضمن مصطفيه، بعد أن توقعت في ذلك الصباح المشؤوم أن يتم تزويدي بالبدلة الخاصة بالأسرى العراقيين، وهو أمر لم يحدث ولم أعرف السبب حينها وإن كنت قد استبشرت خيرًا بالرغم من أن صفتي بين إخوتي الأسرى هو أسير غير نظامي، وهذا معناه أنه قد تمَّ أسري خارج دائرة الصراع بساحات المعارك آنذاك..

بعد كل ذلك يتم المباشرة بتنظيف القاعتين ومرافقها الصحية لغرض التهيؤ ليوم أسود جديد، يبدأ بمناداة بعض أسماء الأسرى المثبتين لغرض الخروج من القفص والقيام بالأعمال الخدمية بداخل ذلك المعسكر الكبير المسمى دوژبان مركز، وهي فرصة كانت تتيح للأسير مجالاً لأن يتمشى ويستنشق الهواء الطلق وينال قسطًا من أشعة الشمس عندما يكون الطقس صحوًا.. وكذلك الفوز أحيانًا عندما يستخدمونهم بأعمال مطبخ المعسكر؛ بتفاحة أو برتقالة يحتفظ بها الأسير العراقي الشهم لكي يقتسمها مع عشرة من رفاقه عند عودته للقفص.

وبعد أن تذهب وجبة الأسرى الذين يستخدمونهم كعمال بحوالي الساعتين؛ ينادى على بعض أسماء الأسرى من المتفرقة لغرض تسفيرهم إلى معسكراتهم.. وبين هذا وذاك كان الوقت يمر ببطئ شديد على من بقي في قاعتي ذلك القفص، فعلى مدار ساعات الدوام الرسمي يجبر الأسرى على الجلوس كل بمكانه، وإذا أراد أحد منهم أن يكلم من حوله من إخوانه فإنه يحادثهم همسًا بغية عدم إعطاء الحجة للحراس الذين كانوا متحمسين بإهانتهم لنا على مدى فترة الدوام الرسمي.. وذلك هو سبب تواجد الحراس بشكل مكثف بداخل القاعتين، لأنهم كانوا يتلذذون بإهانة إخوتي الأسرى.

وللأمانة أذكر أن الفرس بذلك القفص لم يكونوا ينادوا أيًا منا بالعراقي أو الكردي أو العربي أو الشيعي أو السني، فلقد كانوا ينعتون الجميع بصفة واحدة هي بالصداميين، وهذه التسمية بتلك الصفة أجدها اليوم قد أصبحت شائعة للتداول بين عملائهم الأزليين من حزب الدعوة العميل وفيلق بدر الغادر في العراق، ويرددها طبعًا كل المغفلين من أتباعهم ضد أي عراقي مقاوم شريف يقاوم الاحتلالين الأمريكي والفارسي.

وقبيل انتهاء الدوام الرسمي، وبعد أن يعود أسرى الأشغال؛ يتم إحصاء كامل الأسرى للمرة الثانية، وبعدها توزع حصة الغذاء الوحيدة عليهم لكل أربعة وعشرين ساعة، والتي عادة ما تكون رغيف خبز واحد مع صحن من المرقة لكل أسير، وفي بعض المناسبات التي لم نكن نعلم ما هي أسبابها، كانت تضاف كمية من الأرز إلى حصة الأسير، وللأمانة أذكر أن ذلك الطعام عادة ما يضاف له كمية عالية من الملح بقصد خبيث، لكي لا يهنأ أحدنا به على الرغم من كميته القليلة التي لا تشبع حتى الطفل!

وتلك معاناة أخرى ممزوجة بالإهانة ونحن نقف بالطابور بانتظار حصولنا على لقمة الزقوم التي عادة ما يوزعها رئيس الحرس المدعو أيرج بنفسه، لأنه كان يتلذذ بإهانة الأسرى، وعلى سبيل المثال فإنه عندما كان يوزع مرقة الفاصولياء كان يتعمد إعطاء ماء المرقة لبعض الأسرى، ويعطي الفاصولياء لبعض الآخرين وعند اعتراض الأسرى على ذلك ومطالبته بأن يحرك (يخوط) ما في ذلك القدر الكبير من أجل الحصول على كامل نوع المرق، كان يقول مزمجرًا أن بإمكانكم أن تتبادلوا بينكم الفاصولياء بحساء المرقة، ولدى تذمر بعض أخواتكم الأسرى من ذلك التصرف السادي، ينهض إيرج من كرسيه ويركل القدر برجله فيسكب كامل ما تبقى في القدر من طعام على أرضية القفص، ثم يطالب الأسرى أن ينظفوا أرضية المكان بشكل عاجل، وهذا يعني أن الكثير من الأسرى سيحرموا من وجبة طعامهم الوحيدة، ولكن هذا لا يعني أنهم سيبقوا جياعًا حتى وقت توزيع الطعام في ظهيرة اليوم التالي، لأن باقي رفاقهم من الأسرى يجمعوا لهم من كل صحن تزود به باقي رفاقهم، القليل من الطعام بالشكل الذي يعوضهم على ما خسروه.

وبعد فترة توزيع الطعام الزقوم الذي عادة ما تكون متزامنة مع انتهاء الدوام الرسمي يُترك الأسرى وشأنهم لفترة بحدود الساعتين، وفي بعض الأحيان يؤتى في وقت العصر بجهاز تلفزيون صغير يبث سمومه باللغة العربية من محطة إيرانية، فيعرض بعضًا من أفكارهم الخرافية المعروفة عنهم، أو بعضًا من خطابات الخميني وهو يتوعد خاسئًا باحتلال العراق وتحرير كربلاء. وفي أحيان أخرى كانت تلك المحطة الإيرانية تبث التسجيلات التي يرسل فيها الأسرى العراقيون إلى أهاليهم في العراق التحية من خلال تلك المقابلات التلفزيونية وما يتاح لهم من ذكر أسمائهم ومدن سكنهم في العراق بغية متابعة ذويهم لهم وهم على ذلك الوضع المَهين، وهي فرصة ذهبية تتاح للأسير الذي لا يعلم ذويه في العراق شيئًا عنه، ليعلمهم أنه لا زال على قيد الحياة، ولا زلت أذكر مشاهدتي لإحدى تلك التسجيلات المميزة من التي أطلعت عليها كالآتي:

"ظهر لنا في تسجيل الفيديو ساحة كبيرة لأحد المعسكرات، كانت مزدحمة بإخواننا الأسرى بأحد أقفاص الأسر الثابتة يجلسون على الأرض ينصتون إلى أحد الملالي، وهو فارسي الأصل اسمه محمد باقر الطباطبائي الأصفهاني، ويعرف بهذه الأيام أنه (الحكيم) الأول وهو الذي قُتل شر قتلة في النجف بالعراق، وقد تصادف وجوده مع فترة عملية تصوير الأسرى بالفيديو للتعريف عن أسمائهم من خلال بثهم التلفزيزني الموجه، وزبانيته من فيلق بدر هم من كانوا يشرفوا على إدارة تلك اللقاءات التلفزيونية مع الأسرى العراقيين، بأسلوب خشن خالي من كل رحمة، دون أن نتبين وجوههم الخبيثة بالصورة على التلفاز، وعندها سأل أحد الخونة من أتباع ذلك المعمم الفارسي، واحدًا من الأسرى وهو من إخواننا المسيحيين بعد أن تعرف عليه من اسمه: لماذا أنت مسيحي؟ ولماذا لا تتبع دين الحق المتمثل بالجمهورية الإيرانية؟ فسكت المسكين وضاعت عليه فرصة إعلام أهله وذويه في العراق بوجوده حيًا يرزق

لأنه لم يتسن له ذكر باقي بياناته، وسؤال لعراقي آخر كان قد نوه إلى أنه من محافظة التأميم بكركوك وهكذا كان اسمها بتلك الفترة، فقاطعه ذلك الخائن البدري وكأنه يحاسبه قائلاً: هل تعرف ماذا يعني التأميم؟ فسكت صاحبنا وضاعت عليه فرصة إكمال سرده لبياناته الشخصية في ذلك البث الموجه للعراق..".

وبعد أن انتهت تلك المقابلات التي كانت بطلب من منظمة الصليب الأحمر الدولية، والتي حرم منها الكثير من الأسرى الذي كانوا متواجدين هناك بسبب المشاكل التي أثارها أولئك المرتزقة البدريين، وبدأ ذلك المعمم المدعو محمد باقر الحكيم الذي نصَّبه الفرس لأن يكون رئيسًا لجمهورية العراق الإسلامية على حد قول ملالي طهران، بعد أن يتم لهم خاسئين ما أسموه بتحرير كربلاء ونجاح تصدير ثورتهم المزعومة، وللأسف نالوا مرادهم بهذه الأيام بعد أن توغلوا تحت عباءة المحتل الأمريكي، ليعيثوا بالعراق قتلاً وتدميرًا للنفوس وللممتلكات، وعندما أكمل ذلك المعمم ما بجعبته من كلام ترهات وقد أصبح بزمن الاحتلال الأمريكي للعراق أحد رموز السياسة.. كان يدعوا بها الأسرى للتوبة على أياديه الملطخة بدماء العراقيين، بغية تحويلهم بما كان يُدعى حينها بالتوابين، وعندها سأله أحد الأسرى أن يتوسط لهم لدى الإيرانيون بغرض أن يحسنوا من معاملتهم القاسية لهم، لكي يوفروا لهم أبسط المستلزمات الضرورية التي يحتاجوها كبشر؛ أجابهم رئيسهم الموعود بكل وقاحة وضمير ميت: إنكم مرتزقة ومرتدون عن الدين، ولستم بأسرى حرب، وهذا الذي لقيتموه من جنود الثورة الإسلامية هو أقل ما تستحقوه من معاملة، لأنكم قاتلتم أمكم الجمهورية الإسلامية وهذا هو جزائكم في الدنيا.. فسأله أحد الأسرى بجرأة: ومن هو الأسير الحقيقي الذي أوصى به القرآن الكريم يا مولانا؟ فقال ذلك المعمم الذي لا أجد له وصفًا يتناسب وخيانته لأسميه به: إن الأسير

الحقيقي الذي أمرنا الله بحسن معاملته هو من الأعداء الكفار وليس أنتم المرتدون عن الدين الإسلامي، فمثلاً عندما نذهب لنحرر القدس بعد أن نحرر كربلاء وحينها يقع بين أيدينا بعض الجنود من إسرائيل؛ عندها سنعاملهم بالحسنى كما أوصانا الإسلام بحقهم! لأنهم أسرى حقيقيون وليسوا مثلكم لأنكم مرتزقة ولستم أسرى..

تلك كانت اللقطة الأخيرة من ذلك التسجيل الذي بثته تلك المحطة الخبيثة.. ورجوعًا لاستعراض ما كنا نتحدث بصدده عن يومياتنا بذلك القفص.. فقد كان الأسرى العراقيون يعيشون بكل يوم نفس ذلك المنوال، حتى يأتي المساء وينادي الحراس بحلول وقت (الخاموش)، وهو وقت النوم الإجباري بتمام الساعة الثامنة مساءً، لنُصبح كالمعتاد بفجر كل يوم جديد على الضرب بالعصي.. والزمن كان يمضي من غير أن يعرف أحد منا التاريخ أو الأخبار لما يدور في العالم ونحن خلف تلك القضبان، إلا عندما يدخل علينا أسير عراقي جديد تمَّ أسره حديثًا ليخبرنا بأحوال العراق وأخبار المقاتلين على جبهات القتال، وكيفية سير المعارك..

هذا هو وصف الحياة اليومية التي كانت عليها الحياة بذلك القفص اللعين، وبقي أمر واحد كان يخصني حدث أثناء الصباح الأول من تواجدي بذلك القفص؛ وهو تواجد نائب ضابط إيراني يدعى حسين، والذي كان مسؤولاً عن الأقفاص الانفرادية للأسرى بالجانب الآخر من نفس المعسكر، وكان الأسرى يطلقوا عليه اسم السجن الكبير، وفي بعض الأحيان يأتي ذلك النائب الضابط بزيارة لهذا القفص عند الحاجة، وقد استدعاني للاستعلامات بداخل القفص من أجل معرفة حقيقة أمري وتدوين البيانات الخاصة بي، كأسمي وما شابه من معلومات، وبعدها أبلغني أنه قد صنفني ضمن مجموعة المتفرقة التي كانت

على الدوام بحالة الاستعداد من أجل التسفير إلى أقفاصها الثابتة، وهذا يعني أنني سأكون من غير المشمولين بجدول أعمال السخرة اليومية للأشغال بداخل ذلك المعسكر، الأمر الذي يعني أن تجهيزي بملابس الأسرى الخاصة أمر لم يكن يعنيه هو باعتباره أمر متروك إلى إدارة المعسكر الذي سيتم ترحيلي إليه.

وقبيل رحيله إلى مكتبه الآخر حيث الأقفاص الانفرادية للأسرى في الجانب الآخر من ذلك المعسكر، أمر أحد جنوده بحلق كامل شعر رأسي، وحسنًا فعل ذلك لأن القمل كان منتشرًا بشكل جنوني بداخل ذلك القفص، بسبب أن الاستحمام يكاد يكون معدومًا، على الرغم من أن الماء كان متوفرًا في الحمامات والمرافق الصحية داخل القفص، ولكن لا أحد كان يجازف بالاستحمام بتلك الأجواء، لأن الماء كان بارد جدًا بسبب تغير الطقس الذي أصبح بارد جدًا خارج القفص وذلك يعني الإصابة الحتمية بالمرض، بمثل تلك الظروف الصعبة التي يكون المرء فيها بأشد الحاجة لصحته وعافيته بغياب الدفئ والدواء والغذاء.

تعرفت من خلال علاقتي الجديدة مع إخوتي الأسرى بذلك القفص مع مرور الوقت على معظمهم، باستثناء أسيرًا واحدًا كان قد حذرني باقي الأسرى بعدم مخالطته ويدعى علي صبري، لأنه كان قد قتل غدرًا مجموعة من رفاقه الجنود في جبهة القتال ثم سلم نفسه طوعيًا للعدو الإيراني بغية الحصول على ضيافة إيران بموجب ما يسمى بالنداء الذي وجهه الخميني ذلك المعمم الفارسي عبر الأثير لمقاتلي جيشنا العراقي بهذا الخصوص، وهو يناشدهم بتسليم أنفسهم للجيش الإيراني ليصبحوا ضيوفًا على جمهوريته الإسلامية، وسأحكي حكايته التي أوردها هو بنفسه علنًا بحسب تسلسل الأحداث..

ومن خلال تعارفي مع الجميع اتضح لي أن الأسرى العراقيين هناك كانوا على ثلاثة أنواع: النوع الأول منهم هم الرافضين لتلك الغطرسة الفارسية وإن كانوا

خلف القضبان، من خلال تصديهم لكل أسير تسول له نفسه عندما ينجر لأن يخون بلده، من خلال تجاوبه مع مشروع غسيل الأدمغة الذي يمارسه الفرس عليهم، من خلال إذلالهم بالإهانة والتجويع، وبالتالي يحصل الخائن على صفة ما يدعى التواب من أجل مكاسب رخيصة تميزه بالمعاملة الخاصة عن باقي رفاقه الأسرى، وطبعًا من كان يستجيب لتلك الترهات هم ضعفاء النفوس فقط، وكانوا قلة جدًا قليلة.

وأولئك الأسرى الأبطال الذين أسميتهم بالرافضين المقاومين، وهم ليسوا بالضرورة سياسيون أو كانوا منتمين إلى حزب البعث مثلاً، أما البعثيون فقد كان لتنظيمهم الحزبي نشاطًا غير اعتيادي على الرغم من انكشاف تنظيماتهم التي كانوا يعيدون تشكيلها بين فترة وأخرى، وبالتالي يفرقهم الإيرانيين من خلال توزيعهم على أقفاص أخرى لمعسكرات بعيدة في محافظات أخرى، وهناك يبدأوا مرة أخرى بتأسيس تنظيم لخلايا حزبية جديدة، ثم يُكتشفوا ويحصل لهم نفس ما حصل لهم بالسابق، ومرة بعد أخرى ولمرات عديدة يبدأوا بنشاطهم الحزبي من جديد من غير كلل أو ملل على الرغم من الظرف القاسي الذي كانوا يعيشوه أيامها باعتبارهم المستهدفين بالدرجة الأولى من قبل الفرس.

والخلاصة فإن تلك الجموع العراقية من الأسرى المقاومين أو الرافضين ومنهم البعثيين؛ كانوا نسيجًا متنوعًا من الوطنيين أصحاب الغيرة والشرف من كل مكونات الشعب العراقي بكافة قومياته وأديانه. وكانوا من خلال تواجدهم الفعال إياه داخل كل أقفاص الأسرى العراقيين في إيران هم الأغلبية من ناحية العدد..

والنوع الثاني منهم وهم القلة القليلة من الأسرى أصحاب النفوس الضعيفة، وكانوا منبوذين من الجميع وإن كانوا يمارسوا خيانتهم سرًا، من خلال تعاونهم الخسيس مع إدارة القفص التي لا تحترمهم بدورها أيضًا، ولكنهم كانوا

مكشوفين من باقي رفاقهم. وأضرب مثالاً على واحد منهم كان قد تسلل خلسة عن باقي زملائه الأسرى إلى إدارة القفص الداخلية قبل حلول فترة النوم متصورًا أن عيون الأسرى كانت بعيدة عنه.. فأخذ يتودد للخفر المناوب من الحراس مدعيًا أنه من مناصري ولاية الفقيه، وأنه من أتباع آل بيت الرسول الكريم، وأنه من شيعة الإمام علي، ويا حبذا لو تمَّ تزويده برغيف خبز إضافي يكسر به جوعه بتلك الليلة، متوهمًا أن الفرس على نفس معتقده المذهبي أو هم مسلمين على نفس دينه!! فربت الحارس على كتفه وهو يلاطفه بعد استماعه له ومشى به حتى وصل به إلى بوابة الاستعلامات وهناك دفعه إلينا بعنف بعد أن ركله على مؤخرته قائلاً له بعصبية: مالي أنا وعَليكُم؟! أنا فارسي وعلي هذا هو عربي فما الذي يربطني به.. ثم أنهى كلامه القذر هذا بكلمة فارسية نابية ليصف بها ذلك الأسير الانتهازي وهي: كَسيف؟ وتعني قذر، فرجع ذلك الانتهازي الوضيع إلى مكانه خائبًا ذليلاً يجر أذيال دناءة نفسه التي تسببت بتعرضه للإهانة الشخصية له وللشخصية العراقية، وللسمعة المطهرة المتعالية لسيدي أسد المشارق والمغارب علي ابن أبي طالب عليه السلام ورضي الله عنه..

السلام عليك يا سيدي أبا الحسن والحسين.. عذرًا فلقد أصبح من يروج بحبه ومعزته لك كذبًا ونفاقًا هم من أراذل القوم، ويقينًا أنك تبرأ من هذه النماذج الخائنة النكرة بعد أن باعوا شرفهم الوطني بثمن بخس.. فهذا هو حال الفرس الحقيقي ومن يتبعهم من أراذل القوم منا كعراقيين، ولو كنت يا سيدي أسد المشارق والمغارب بزماننا هذا لكنت أول من قاتلهم، بعد أن شوهوا صورة دين الإسلام المحمدي السمح الذي حملت لواءه وأنت رجل السيف والقلم، والفارس البطل المغوار، والأديب الفصيح والإمام التقي، وهذه الصفات لا تتوفر بشخص واحد باستثنائك أنت يا سيدي أبا الحسنين. وبذلك الموقف تذكرت

حينها صحة المقولة الشعبية البغدادية وأنا انظر بمرارة إلى ذلك الأسير الانتهازي المغفل الخائن: خل روحك بعز دوم وبالك تذلها ولا تطلب الطيبات إلا من أهلها...

أما النوع الثالث منهم كانت هي الحالة الوسط ما بين الخشية وبين التصدي، وكانوا من النوع الذي يتحاشى أي نوع من الممارسات التي قد تعرضهم للمصادمة مع الفرس خشية الإهانة والتعذيب بالجلد في أكثر الأحيان، ومن ناحية أخرى فقد كانوا مقاومين للضغوطات التي تجعلهم مرغمين للسير في الدروب الآسنة للخيانة من خلال برنامج الفرس بغسيل أدمغتهم، وذلك من خلال اعتمادهم أسلوب معتدل بالحفاظ على ماء وجوههم من خلال التزامهم بالسكينة والهدوء بجميع تصرفاتهم، حتى يفرج الله عز وجل عنهم بمحنتهم تلك ويعودوا للوطن العزيز بعد انتهاء الحرب، وكانوا من الذين نستطيع أن نصفهم بالوطنيين الذين تهتف قلوبهم للعراق، ولكنهم لا يقووا على المواجهة والأغلال بأيديهم بعد أن سقطت منها بنادقهم جراء الأسر.. وقد اعتمدت أسلوبهم إياه حتى أرى ما سيكون من أمري بقادم الأيام وحتى إشعار آخر، وإن كنت ميالاً للانحياز إلى جانب المقاومين من إخوتي الأسرى؛ لأني كنت متعاطفًا معهم بدرجة كبيرة، امتثالاً لمقولتي الراسخة بوجداني: السعادة في النضال والتعاسة في الخنوع، ولكن الوقت لم يحن حينها لأكون أحدهم، لأني كنت أحلم وأعمل بطريقة تجعلني أتخلص نهائيًا من ذلك الكابوس لكي أعود لوطني، حتى لو تعاونت مع الشيطان في سبيل نيلي لحريتي التي ستجعلني قادرًا على تنفيذ ما وعدت به ربي وأشهدته عليه؛ بالعودة للوطن الغالي.

بتلك الفترة كانت علاقتي قد توطدت مع جميع إخوتي الأسرى الثابتين بذلك القفص من أصحاب الغيرة والشرف، ومنهم أخي العزيز الأسير حلمي الذي كان

يدير أمور واحتياجات أخواته الأسرى بصفته كمترجم، وبعد أن تعرفت عليه جيدًا وأمنت جانبه فاتحته بصراحة لأتعرف منه وهو من المطلعين على كل خفايا الأمور هناك، فسألته عن رأيه إن كنت سأسفر للأقفاص الثابتة؟ أم أن لا زال هنالك بصيص من الأمل لأنال حريتي من جديد؟ فأجابني:

– إن أمر نجاتك من ذلك الكابوس متوقف على مدى فطنتك وتصرفك الصحيح حياله، باعتبار أن حالتك حالة خاصة جدًا.

فسألته:

– كيف يتم لي ذلك وأنا الذي اجتهدت وتحملت وعانيت الكثير في سبيل ذلك كما أخبرتك، ولم أفلح حتى استقر بي المقام هنا..

فقال لي:

– من خلال ما أخبرتني به من تفاصيل ما مر بك؛ فإنني أعتقد أن الفرس قد يعرضوا عليك بقادم الأيام أمرًا سيكون على نفس الشاكلة التي طرحوها عليك في مريوان، بغية التحاقك بمجاميع حزب الدعوة وقوات بدر التي تقاتل العراق معهم ورفضتها أنت، وهذا ما جعلهم يرموا بك إلينا بهذا القفص، ولكنك بحسب اعتقادي بقيت بعيونهم مقاتل ضمن صفوف حليفهم مسعود البرزاني الذي له ثقله عندهم، وهي فرصة إن تكررت مرة أخرى فستكون ثمينة ويجب عليك أن تتهيأ نفسيًا لذلك، وتتخلى عن بعض من ثوابتك الوطنية مؤقتًا، وتتصرف بحنكة وبدون انفعالات، ولا أحتاج أن أذكرك أن الخدعة مشروعة بزمن الحرب خصوصًا أن الغاية نبيلة في نيتك بالرجوع مباشرة إلى العراق فور حصولك على حريتك، فدع الشفافية والصراحة والصدق جانبًا لأنك تتعامل مع الأعداء..

فقلت متعجبًا ومتشوقًا:

– كيف لي أن أنجو بهذا الأسلوب؟ وما هو الشيء الذي تعتقد أنه سيعرض عليَّ من قبل الفرس؟!

– من خلال ما ذكرته لي بخصوص تفاصيل التحقيقات التي دارت معك من قبل الاطلاعات أو الاستخبارات التي مررت بها قبل أن يحولك المحققون إلينا، فقد تبين لي من كلامك هذا أنهم لم يعذبوك جسديًا، وهذا يفسر أنهم قد تركوا فسحة من المجال كي لا تبغضهم أو تحقد عليهم إذا ما عذبوك بشكل قاسي، أسوة بالعراقيين الذين أسروا بجبهات القتال، ذلك لأنهم قد يستفيدوا منك لاحقًا بحسب اعتقادهم، وهذه هي رؤيتي لموضوعك، وأتمنى أن أكون مصيبًا بها لكي تنجو وتصل لبغداد وتنقل مشاهداتك لما اطلعت عليه لأحوال أخواتك الأسرى هنا، وفي حالة إرجاعك لجماعة مسعود البرزاني، ستكون طليقًا حينها، وكما تعلم أن الهروب أو التملص منهم ليس بالأمر العسير، ولكن تذكر أن الحكمة والحذر وسرعة البديهية ستكون مطلوبة بكل خطوة تخطوها والتوفيق من عند الله سبحانه...

عندها فهمت واستوعبت كل ما نصحني به ذلك الأخ العراقي الشهم بتفاصيلها العامة، وبعدها أخذت أحلم برجوعي للوطن الغالي، وهان علي حالي الذي كنت أعيشه لأن الأمل تجدد في نفسي.. ومن الأمور التي أُجبرت على أن أتبع ممارستها بالضرورة؛ هي أن الأسير عندما كان يتعرف على زميل آخر له فإنه كان يتحاشى أن يذكر له اسمه الصريح المدون بسجلات إدارة القفص، كأن يقول أنا أبا فلان، حتى لو كان أعزب، بسبب أن بعض الأسرى من ضعاف النفوس كانوا يستغلوا معرفتهم لأسماء الأسرى بغرض الوشاية الكاذبة عليهم من أجل الحصول على بعض المكاسب الرخيصة من الفرس، كحصولهم على رغيف إضافي من الخبز أو استثنائهم من برنامج الإهانة اليومي المتعمد ضد الجميع... في الوقت الذي لا يستطيع أحد منهم الوشاية بأبو فلان، لعدم وجود مثل هذا الاسم في سجلات الأسرى لدى إدارة القفص، والوشاية عادة ما تكون أن الأسير الفلاني قد ذكر الخميني بسوء أعماله، أو أنه تهجم على الجمهورية

الإسلامية، أو تفوه بكلام غير لائق على حراس الثورة الإسلامية أو على حزب الله الحاكم هناك، أو أن فلان كان قد امتدح الرئيس صدام حسين، أو أنه كان من أعضاء تنظيم حزب البعث قبل الأسر أو بعده، أو أنه كان يعمل بدائرة أمن وحدته العسكرية قبل الأسر، أو أنه قد استبسل في القتال أثناء المعارك السابقة ونال نوطًا للشجاعة، وعادة ما تكون تلك الوشايات الرخيصة تصب بالبلاء على الكثير من الأسرى، وأكثرها كانت كاذبة ولم تحدث أصلاً، والعقوبة كانت إما بجلدهم أمام زملائهم، أو تحويلهم إلى الزنازين الانفرادية لغرض التحقق من صحة الوشاية بما يرافقها من التعذيب أو العزل المنفرد لفترة طويلة من الزمن، بإشراف العملاء من فيلق بدر أو حزب الدعوة، الذين كانوا يتفننون بتعذيب الأسرى بتلك التحقيقات التي يكونوا فيها هم الجلاد وليس الجنود الإيرانيون لأنهم أشد خبثًا وعداءًا للعراقيين من الفرس أنفسهم.

ولا زلت أذكر حكاية أحد الضباط الأسرى، كان اسمه النقيب حسين هيلان، الذي سمعنا بموضوعه من أحد الأسرى الذي كان قد التقاه قبل فترة وجيزة، وبدوره حكى لنا أسباب تعذيبه، وملخصها أنه قد تمَّ استدعائه من أحد الأقفاص الثابتة لأحد المعسكرات، ليحل نزيلاً بإحدى تلك الزنازين الانفرادية التي هي بنفس معسكرنا الذي يقع فيه قفصنا هذا، وذلك لأن أحد الأسرى من عديمي الغيرة والشرف كان قد تعرف عليه أثناء عرض فيلم تلفزيوني بقفصه، استعرض بعض الأسرى الذين وقعوا للتو بالأسر، وكان النقيب حسين هيلان معهم بعد أن عمد على نزع رتبته العسكرية لكي لا يتعرف عليه الفرس، لأنه كان ضابط الاستخبارت بوحدته، وهو من أهالي محافظة تكريت، وكان الفرس من خلال تعذيبه يبغوا انتزاع المعلومات منه بالقوة بخصوص التشكيلات العسكرية عن الجيش العراقي..

وأشد ما تأثرت له حينها؛ تلك الوقائع التي نقلها لي أكثرهم بخصوص التنسيق المسبق مع إيران من قبل بعض الجنود أو ضباط العراق الشيعة، الذين كانوا من المنتمين لحزب الدعوة، ومندسين بصفوف القوات العراقية المسلحة، وأكثرهم كانوا من الضباط الذين كان بعضهم يشغل مناصب أمراء لوحدات مقاتلة، وقد عملوا على تسليم كامل وحداتهم بكامل سلاحها وألياتها وأفرادها للعدو الفارسي دون أن يسمحوا لمقاتليهم أن تثور طلقة واحدة من بنادقهم، بحجة أنهم محاصرون ولا فرصة للمواصلة بالقتال ولا مناص من التسليم!

وذلك ما حدث بمعارك المحمرة بصيف تلك السنة ذاتها التي أسر فيها عشرات الآلاف من مقاتلي الجيش العراقي، وقد استعرضتهم إيران بشوارع طهران بعد أن أخلوا على الفور من منطقة عربستان، وحينها تعرضوا للإهانة القاسية من قبل المتجمهرين من الفرس العنصريين، وبذات الوقت ذهب أولئك الضباط الخونة إلى أحضان الملالي الفارسية بعد الأسر، ولم يدخلوا لأقفاص الأسرى باعتبارهم قد قدموا ولائهم لما يسمى بالمَذْهَب على ولائهم للوطن الغالي المُذَهب بالذهب الخالص والمكحل بتربته الزكية الطاهرة!

والغريب بذلك الأمر أن كل أولئك الضباط الخونة كانوا أعضاءً بصفوف حزب البعث العربي، الذي استنكر علي بعض من أعضائه بوحدتي العسكرية وطنيتي العراقية بسبب عدم انتمائي لصفوف حزبهم، الأمر الذي دعاني حينها أن أخطو أولى خطواتي برحلتي مع العذاب.. ومن أجل ألا تكتشف خيانة أولئك النفر القليل من الضباط الخونة لدى السلطات العراقية في بغداد؛ فلقد تمَّ تزويدهم باستمارة الرسائل التي كان الصليب الأحمر الدولي ينظمها لكتابة الرسائل لأهلهم وذويهم في العراق، على اعتبار أنهم بداخل أقفاص الأسرى في إيران، وأنهم يعانوا كبقية الأسرى ما يذيقه لهم الفرس من الذل والهوان، وهم بحقيقتهم

كانوا من المتسكعين بشوراع طهران، بضيافة العملاء من حزب الدعوة وفيلق بدر لحين تأهيلهم الخياني.

والتأهيل عادة ما يكون استمتاعهم بممارسة العهر اليومي وغيرها من المفاسد، وبذلك يكون أحدهم قد تأهل للمشاركة بطعن العراق بخاصرته من خلال وقوفه على الساتر الأمامي لجبهة القتال بطرفها الإيراني ليقاتل وطنه العراق.. وللعلم أن الغاية من تسجيل أسمائهم بسجلات الصليب الأحمر كانت من أجل إبعاد الشبهات عنهم في العراق، باعتبارهم لا زالوا من الموالين للوطن، وهم بحقيقة الأمر ليسوا أسرى ولا هم يحزنون، وبذلك يتقاضى أهلهم وذويهم كامل حقوقهم ورواتبهم الشهرية كأسرى حرب، ناهيك عن عدم تعرضهم للمحاسبة القانونية من قبل الحكومة العراقية آنذاك إذا ما تسرب خبر تلك الخيانات إليها، في الوقت الذي كان أبنائهم منغمسون بالخيانة لحد أذانهم من خلال القتال ضد العراق، وأستطيع أن أجزم أن ذويهم كانوا على علم بتلك الخيانة، لأنهم خرجوا من رحمهم الخبيث.. لقد تبين ذلك الموضوع بوضوح بعد أن عادت رسائلهم التي كتبوها وعلى ظهرها أجوبة أهاليهم في العراق، واطلع عليها باقي الأسرى الذين يعرفونهم بالاسم والرتبة العسكرية..

ولطريقة توزيع الرسائل القادمة من العراق حكاية مؤسفة أيضًا، فلقد أخبرني أحد الأسرى من معسكر برندك أن كيس بريد الرسائل القادم بأجوبة الأهل لا يفرز على عنوان كل أسير بمعسكره، لأنهم كانوا دائمي التنقل بين كل المعسكرات، وضمنها المعسكرات الخاصة بالضباط، ومنها معسكر قصر زندان، بعد أن تمَّ فرزهم عن باقي الأسرى من المراتب.

والرسائل التي تكتب للعراق يمر عليها زمن طويل حتى ترجع للأسير لكي يطلع على جواب أهله، الذي يتم تدوينه على الصفحة الثانية من الرسالة، وعندها

سيكون ذلك الأسير قد تنقل ما بين معسكر لآخر من تلك التي تتواجد فيها أقفاص الأسرى، وعليه فإن كيس الرسائل كان يدور على كل المعسكرات التي تتواجد بها أقفاص الأسرى الواحد تلو الآخر، وذلك بأن يرمى كيس الرسائل إلى الأسرى في إحدى الأقفاص لانتقاء ما يريدون أخذه منه بعد أن يتعرف أصحاب تلك الرسائل على أجوبة أهاليهم، وما يتبقى من تلك الرسائل يحول إلى قفص آخر وآخر، وهكذا حتى توزع كامل الأجوبة العائدة لكل من كان له نصيب بكتابة رسالة من ذويهم بالعراق، علمًا أن ليس كل الأسرى كان يسمح لهم بكتابة الرسائل، لأن ذلك عائد إلى أن المعسكر الذي يتواجد به الأسير هل هو مسجل لدى منظمة الصليب الأحمر أم لا؟ فإذا كان من غير المسجلين فذلك يعني أنهم من المنسيين ولا حق لهم بكتابة رسالة أو بمتابعة الصليب الأحمر لأحوالهم وشكاويهم..

لقد كان شعوري كعراقي بالغ بالخجل وأنا أطلع على تلك الوقائع المخزية التي لم يتسنَ لأحد معرفتها حينها، إلا لمن يقع بقبضة الأسر وينالـه القسط الأوفر من تلك المأسي، أو من يستطيع الهرب من الأسر بعد أن دخل تلك المعسكرات اللعينة عائدًا لوطنه، وذلك أمر مستحيل إلا إذا قدر الله له.. لأني كنت قد وضعت نفسي في بداية الرحلة على نفس طريق أولئك الضباط الخونة من غير أن أتبين حقيقة الجهة التي انضممت لها بسبب جهلي ولكن بمعطيات أخرى، مع فارق أني لم أكن أعلم إلى أين سيؤدي بي طريقي الذي مشيت فيه بشكل أعمى قبل أن أسلكه، ومن غير أن أمني نفسي بالحصول على أية منافع شخصية، لأن كل همي كان مد يد المساعدة برفع الظلم عن كاهل أهلي الكورد، بالتالي لا يمكن المقارنة بيني وبين هؤلاء الخونة الذين وجدتهم بطهران وهم في طريقهم الخياني الذي سلكوه بعد أن خططوا له بدراية تامة ونوايا شيطانية، بغية الانحياز لجانب عدو العراق المتغطرس ضد الوطن الذي هو ملكنا جميعًا

وليس ملكًا مجيرًا لأي نظام حكم، بضمنهم نظام الحكم القائم آنذاك وهو الذي كان يقود القوات المسلحة العراقية بكل اقتدار بإدارة حرب دفاعية ضد عدو متغطرس ولعين..

وبمقارنة تلك الأحداث التي عايشتها بأقفاص الأسرى العراقيين بإيران، وبين ما كنت وإياهم عليه داخل الوطن الغالي؛ فإني لمست فرقًا واضحًا بالعلاقات الفردية أثناء إدارة الحديث بين الأسرى أثناء مناقشاتهم لأمور عديدة لا حصر لها، من ناحية اهتزاز الشخصية لدى البعض القليل منهم والانزلاق لدى فئة ضالة أخرى منهم بدروب الخيانة بسبب ضعف الشخصية والتربية الوطنية وعدم إمكانية تحملهم للمزيد من تلك الضغوطات التعسفية المقصودة بحقهم من قبل أعدائهم الفرس، حتى رمى الضعفاء منهم بأنفسهم للهاوية من خلال استجابتهم لمشروع الخيانة والغدر الفارسي وإن كانوا قلة قليلة، ومثلهم طبعًا موجود بكل جيوش العالم، ولكنها حالة كانت بنظري تعتبر خسارة معنوية كبيرة لأنها لم تكن تليق بالشخصية العراقية، ولا توازي أيضًا حجم التحدي الذي كان عليه الشعب العراقي وقواته المسلحة بالتصدي لتلك الهجمة الفارسية على العراق، ويبدو أن الرجال لا تظهر معادنهم إلا بأوقات الشدة، عندما توضع على المحك، فيظهر معدن كل منهم على حقيقته بشكل واضح وجلي، وهذا ما شاهدته واطلعت عليه حينها بإيران بتلك الفترة..

ونفس الشيء يتكرر اليوم والعراق يرزح تحت الاحتلالين، الأمريكي الغاشم والفارسي الخبيث، ويبقى الرجل الحقيقي ذلك المعدن الصافي الذي كلما وضع على المحك ازداد بريقه الذهبي إشراقًا ونقاءًا وعطاءًا، والحمد لله الذي مكننا لنكون منهم سابقًا وحاليًا، فعندما كنا في العراق كانت الأحاديث ودية بين الجميع ولا تتخللها الخلافات الحادة، أما هنا عندما كنا بين أيادي الفرس بتلك المحنة الصعبة وذلك الامتحان العسير؛ فالأقنعة المصطنعة كلها زالت وسقطت

عن وجوه الجميع لأنه لم يعد لزوم لوجودها، والحوارات أصبحت تأخذ طابع المواجهة المباشرة سواء بالسلب أو بالإيجاب من غير مراعاة لأدب الحوار الذي يعتمده كل عراقي شريف، فأحوال الكل قد أصبحت سواء ولم يعد هناك أحد أفضل من الآخر، ولا أحد يحتاج لأحد، ولا أحد قادر على مد يد العون لمساعدة أحد، لأن الكل كان مفلسًا بتلك القافلة من المغلوبين على أمرهم وهم تحت الحراب الفارسية باستثناء أغنياء النفس، بل لا أحد يستطيع أن يمسك بزمام أمره على الأقل.

وبسبب زوال تلك الأقنعة البشرية الكاذبة والمنافقة لمن كان يستخدمها داخل الوطن حصلت هناك مكاشفة ومحاسبة بشكل علني وصوت مسموع بين قلة من الأسرى وضمائرهم التي كانت تعذبهم، فمثلاً عندما كنت أتحدث بحوار معين مع أحد ما، فإني كنت أتعجب عندما أسمع منه، ومن غير مناسبة وهو يستعرض لي ماضيه وأخطاءه وهفواته وتجنيه على أهله أو جيرانه أو أحبته أو زملائه أثناء حياته السابقة، لأنه يعتقد أن ما هو عليه اليوم من حال بائس وهو تحت رحمة من لا رحمة بقلوبهم، كان بسبب الظلم الذي أوقعه بمن كانوا حوله في العراق، وكأنه كان بتلك الاعترافات يريد التكفير عن ذنوبه بحق كل الذين قد تسبب بالإساءة إليهم، اعتقادًا منه أن الوضع السيء الذي كان يعيش مآسيه عشرات المرات باليوم الواحد جاء نتيجة غضب من الله عليه، بعد أن طغى وتمرد عندما كان يعيش ميسور الحال بأمواله أو بجاهه أو بمنصبه الوظيفي أو بقوته أو بمقدرته على إهمال إن لم نقل إيذاء الآخرين.

والناس كما هو معلوم مستودع للأسرار، وهم ليسوا بالضرورة ملائكة، فكلنا خطائون وخيرنا هو من يتعظ من تجاربه، ويعمل على تطوير ذاته وترويض نفسه الأمارة بالسوء لتصحيح تلك الهفوات أو الأخطاء.. وإذا ظن أحد أن أولئك الرجال كانوا سيئون بماضي حياتهم، فليسأل نفسه بصدق وليراجعها

على نفس طريقتهم وليحكي ويكاشف الآخرين بماضيه إن كان هو من المنزهين عن الخطأ كما يعتقد..

وأنا أيضًا بدوري كنت قد تساءلت عن سبب تواجدي بذلك المكان القاسي من خلال مراجعة وحوار صريح مع ضميري بالرغم من أنني لم أتسبب بإيذاء أحد بسابق حياتي، وسألت ربي إن كان ما كنت فيه من سقم هو غضب منه علي، أو عقوبة ربانية كما كان شائع عند بعض الأسرى من الذين أشرت لهم بأعلاه، أم أنها مجرد أحداث عابرة يتعرض لها كل الناس؟ أم هو بسبب حالة استثنائية لا تشبه هذه أو تلك؟ نعم تجرأت لأسأل ربي على طريقة سؤال النبي موسى لربه حتى أجابه ربه تأدب يا موسى، وأتمنى أن ربي قد غفر لي ذلك التساؤل وهو الغفور الرحيم، والسؤال كان يتلخص أنه إذا كان كل ما حل بي هو سخط منه وأنا أحد عباده، وهي إرادة ربانية بحقي؟ فإن كانت كذلك؟ فهل هو قادر أن يعيدني لنفس نقطة البدء التي شرعت بها بهذه الرحلة التي أصابني من خلالها شديد العذاب، لأرجع لنفس ما كنت عليه من معيشة مستقرة في العراق، بشرط أن تكون على نفس التسلسل الذي بدأ من بغداد وانتهى بي في مقبرة الأحياء بأقفاص الأسرى بإيران، أو على أقل تقدير يتسبب بنيلي لحريتي من جديد بطريقة مشرفة؟.

وعندها نذرت وعاهدت ربي إن تحقق لي ذلك التمني الذي أشبه ما يكون بأحلام العصافير كما يقال، ولكن إرادة الله فوق كل إرادة والقادر على كل شيء، وهو أمر كان بالحسابات الدنيوية أمرًا لا يمكن تحقيقه، إن لم أقل إنه كان من سابع المستحيلات، إذا ما استبعدنا رحمته وغفرانه وهو أرحم الراحمين، وعليه فإني نذرت أن أرجع للعراق غير آبه بما قد ينتظرني هناك من عذاب، لأن الرجوع بحد ذاته هو نصر مبين، وما عدا ذلك فهو أمر ليس له أهمية، حتى وإن فقدت رقبتي هناك لأني سأكسب حتمية دفن جثتي بتراب بلدي

الطاهر، وهذه وحدها كانت أمنية مستحيلة الحصول لكل أسير عراقي بإيران، لأن الأمل للعيش مرة أخرى في ربوع الوطن أصبح ضربًا من الخيال بتلك المرحلة بالذات..

لقد كنت أتمنى طوال تلك الفترة التي قضيتها في سجون إيران، لو أن مكروهًا قد حدث لي وتوفيت بسببه فأمنيتي كانت هي أن ترمى جثتي على حدود العراق، وهي أمنية مستحيلة طبعًا بتلك الظروف التي مررت بها في الأسر بالأقفاص مع إخوتي الأسرى الذين كان العديد منهم يتوفى بين الحين والآخر، بسبب المرض أو القتل المتعمد من قبل الحراس أثناء الحياة اليومية، أو من خلال التعذيب بالأقفاص الانفرادية أثناء التحقيق ببداية الأسر، أو بسبب الوشاية من أحد الخونة بعد الأسر..

والحقيقة أن تلك الأمور والأحوال التي اطلعت عليها عن كثب بذلك القفص اللعين؛ كانت بالغة في القسوة على نفسي، لأني إنسان شفاف بطبعي، ولم يكن لي اطلاع على تلك الأهوال التي عايشتها هناك، وإن كانت قد أصبحت دروسًا لي لأني استفدت منها بنهج حياتي اللاحقة، بعد أن أخذت العبرة منها، وعلى رأس تلك العبر هو يقيني الراسخ أن كل مباهج الحياة تافهة لأنها لا تدوم لأحد، وبالتالي أصبح الحلم الوحيد لي هو كيف أترك بصمة خير بهذه الدنيا، والوصفة السحرية لذلك هو المراجعة اليومية مع الضمير وهو الرقيب على كل أعمالنا الدنيوية لنسأل ضمائرنا بصدق وشفافية إن كانت راضية عنا أم لا، فالضمير لا ينافق، وبذلك يستطيع أحدنا أن يعرف إن كان ظالمًا أم عادلاً بنهج حياته، وبذلك فإن السبيل الوحيد لمعرفة إن كانت أعمالنا تصب بمجرى الظالمين أو العادلين هو من خلال مراجعة الضمير، وسؤاله عن ذلك من خلال مكاشفة صادقة، فإن وجدنا ضمائرنا مرتاحة لأي قرار يصدر منا؛ فذلك يعني أننا على الطريق الصواب، وإذا وجدنا ضميرنا يؤنبنا فذلك يؤشر أننا على الطريق الخطأ بالقرار أو بالتصرف.

ومرت الأيام، وكنا كالمعتاد بصباح كل يوم بعد التعداد اليومي لنا وقراءة أسماء بعض الأسرى الذين سيذهبوا للأشغال بغرض الاستفادة من خدماتهم كعمال تنظيف.... إلخ، يتم بعدها قراءة بعض أسماء الأسرى من غير المثبتين لكي يسفروا لمعسكرات أسرهم، وفي صباح إحدى تلك الأيام السوداء تمَّ قراءة اسمي معهم، فخرجوا هم من غير أن أكون معهم لأن أحد الحراس أخذني لغرفة إدارة القفص لأن هناك محقق يريد مواجهتي! استغربت جدًا لذلك الموضوع لأني كنت متهيئًا للانتقال إلى إحدى الأقفاص الدائمة في حالة مناداتي كما كان متبعًا مع كل الأسرى، من غير أولئك الأسرى المثبتين بداخل قفص التسفيرات هذا، وكانت هي المرة الثانية لي أن أدخل إلى غرفة الإدارة، وإن كانت هي داخل القفص لأنها تقع في الممر الذي يربط ما بين القاعتين، وكنت قد دخلتها في اليوم الأول لي عندما استدعاني نائب الضابط حسين بغرض تزويده ببعض بياناتي، وعند أول لقائي بذلك الشخص بادر هو بالتحدث معي باللغة الكوردية وباللهجة السورانية التي كنت أفهمها إلى حد ما، من غير أن أتمكن لغويًا بالتحدث بها على الشكل المطلوب كما أنا الآن لأنني بغدادي الولادة والسكن.

كان ذلك الشخص هادئ غير عدائي، يرتدي الملابس المدنية، ولم يتبين لي ببداية حديثه معي إن كان كورديًا إيرانيًا أم أنه كورديًا عراقيًا؟ حتى توضح لي بعد قليل أنه من كورد إيران لأنه لم يستخدم بلغته الكوردية بعض المفردات العربية التي يدخلها كورد العراق بلغتهم الكوردية، المهم إني تأكدت أن ذلك الشخص ليس فارسي، وتلك من محاسن الصدف أو محاسن القدر لأن الفارسي معروف ببغضه الذي لا يخفيه لكل عراقي، أيًا كان ذلك العراقي عربيًا أم كورديًا أم مسيحيًا أم مسلمًا شيعيًا أو سنيًا، لأنهم قوم مهووسين بفارسيتهم اللعينة بشكل عنصري مقيت..

وعندها قال لي ذلك الشخص إنه جاء من أجل معرفة بعض بياناتي: كالاسم الثلاثي واللقب وعنوان مسكني في العراق وعنوان وظيفتي السابقة وكذلك أسماء كافة أفراد عائلتي، فأخبرته بما طلبه مني بكل صدق، دون أن أزوده بمعلومات خاطئة، ولأني وجدت أسلوبه لطيفًا معي ولو بالظاهر فقد سألته عن سبب سؤاله عن كل تلك البيانات العائلية ونحن في إيران وليس بالعراق؟ فلم يتردد عن إخباري أن تلك المعلومات الشخصية ستذهب إلى أصدقائهم من عملائهم المناضلين في بغداد من حزب الدعوة، الذين سيتحرون عني بطريقتهم الخاصة، ليعرفوا إن كانت معلوماتي التي زودته بها صحيحة أم كاذبة، وهل أنا فعلاً عسكري برتبة بسيطة في القوة الجوية؟ أم أنني كنت ضابط استخبارات كما اتهموني؟ ثم انتقل بعدها ليسألني عن ظروف اعتقالي بقضاء مريوان الإيراني الحدودي؟ فأخبرته بانتسابي إلى حزب مسعود البرزاني وأسباب المشكلة التي حصلت معي هناك وأدت لاعتقالي، ولكن دون أن أشير إلى ما تفوهت به من كلام تحديت به ذلك الفارسي اللعين الپاسدار صادق أثناء تلك المحادثة السقيمة التي دارت بيني وبينه قبيل تلفيقه تلك التهمة الكيدية لي بالتجسس.

سألني بعدها عن التشكيل القتالي الذي كنت منخرطًا به في كردستان العراق، فزودته بالمعلومات التي تثبت أنني كنت بالفعل معهم قبيل إرسالهم لي لإيران بسبب نقلهم المزعوم لي إلى المكتب السياسي لحزبهم بمقره الرئيسي الذي يسمى باللغة الكوردية: السركردايتي، وهو الذي لم أكن على علم أنه في إيران، فسألني عن نوع السلاح الذي كنت أحمله هناك؟ فلم أحرج وأجبته على الفور إنها كانت بندقية كلاشنكوف روسية الصنع، فسألني عن رقمها، تعجبت من السؤال وقلت له إنني لم أتفحص رقم البندقية، لأنه لم يكن أمر مهم بالنسبة لي ولباقي رفاقي من الپيشمرگة، وعندها سألته ممازحًا: وما سبب ذلك

السؤال؟ فقال لي وهو متبسم من غير أن يتشنج: ذلك لأن كل أسلحة جماعة حزب مسعود البرزاني مصدرها من إيران وهي معروفة لدينا من خلال تسلسل أرقامها، ثم رجع بي ليسألني عن بيانات أخرى من نوع آخر غير تلك التي سألني إياها في بداية جلستنا، فسألني نفس ذلك السؤال الذي سألني إياه ذلك الپاسدار اللعين صادق وتشنجت بسببه في مريوان: هل أنت سني أم مسلم؟ فأجبته بهدوء تام بهذه المرة وكأنني قد سمعت مثل ذلك السؤال لأول مرة طالبًا منه المعذرة عن عدم الإجابة عليه بسبب جهلي بأمور الدين من ناحية، وبسبب أن الكورد قوميون أكثر مما هم متدينون، وكان تهربي من الإجابة خشية من وقوعي بفخ جديد، وبعد أن انطلت عليه حيلتي والحرب خدعة ومن يجيدها ينجوا، على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، الذي هو باعتقادي مبدأ مرفوض بالمجالات الأخرى بالحياة باستثناء الحالة مثل التي كنت فيها، لأن الطرف الآخر عدو لدود، وأنا لم تغرني ابتسامة ذلك الرجل الذي بدت عليه علامات الوداعة ولو ظاهريًا، لأني تعلمت حتى تلك الساعة الكثير أثناء تلك الفترة التي قضيتها في سجونهم وزنازينهم، وكنت قد حفظت الدرس جيدًا وجعلت النصائح القيمة التي قالها لي أخي الأسير حلمي أمام ناظري. فقال:

– سأسجل إنك سني لأن كورد العراق كلهم من أتباع أبي بكر وعمر.. إلخ من كل الذين مشوا على طريقهم ولم يرتضوا الإسلام الحقيقي المتمثل بأتباع آل بيت النبي الكريم (ص وآله)...

فقلت له متبسمًا وبهدوء تام:

– لك ذلك، واكتب ما تشاء عني بهذا الموضوع لأنه أمر لا يعنيني.

فقال وكأنه قد اقتنع بكلامي لينتقل لسؤال آخر:

– حسنًا أريد أن أعرف منك السبب الذي دعاك لأن تأتي إلى طهران؟

قلت له من غير أن أستهجن سؤاله، الذي جعله يبدو إما أن يكون مغفل أو حشاش، وهو لم يكن كذلك حتمًا لأنه يعرف كل شيء عني وعن أسباب تواجدي بإيران وكيفية تسفري لطهران فقلت:

– لقد جئت إلى طهران بغير رغبة أو إرادة مني لأني كنت تحت القيد ومخفورًا من قبل الجنود الذين اقتادوني من سجني بمحافظة سنندج، كما وضحت لك بالتفصيل عندما سألتني عن ظروف اعتقالي.

فقال بهدوء والبسمة الصفراء كانت تعلو شفتيه، وحقيقة أنا بتلك الفترة احترت لمعنى أو تفسير تلك الابتسامات الخبيثة التي تكررت معي من قبل كل المحققين الذين وعدوني خيرًا ثم أرسلوني بعدها إلى محطات أخرى كانت أكثر سوءًا وإذلالاً، وبالمناسبة فأنا الآن أعرف معنى تلك الابتسامات الصفراء للفرس لأني أجدها على شفاه كل العمائم الشيطانية من الفرس وأعوانهم من المتفرسين بعد احتلال العراق، فمثلاً عندما يقع أحدهم بالإحراج نتيجة سؤال يوجه له من قبل صحفي ولا يستطيع الإجابة عليه فحينها يراوغ بتلك الابتسامة الصفراء لكي لا يبدو عليه أنه قد وقع بالحرج وليس لديه إجابة، وكذلك نفس الشيء بالنسبة لكل المحققين الذين قابلتهم بإيران، فقلوبهم مليئة بالغل والحقد والكراهية ولكنهم يراوغوا بتلك الابتسامات التي يغشوا بها من لا يعرف تلك الطبيعة الخبيثة الكامنة بنفوسهم الحقيرة.. فقال:

– حسنًا ما هو اسم أولئك الجنود الذين اقتادوك إلى هنا في طهران وأنت مكبل بالقيود كما تقول؟

قلت ببالغ الهدوء بعد أن تأكد لي أن الغاية من تلك الأسئلة السخيفة هو إثارتي لأتعصب وأخرج عن تعقلي بأجوبتي له:

– الحقيقة أنا لم يحصل لي الشرف بالتعرف على أسمائهم ومعرفتها بالنسبة لك هو أمر بسيط، إذا ما رجعت لسجلات الاستعلامات الرئيسية لهذا المعسكر بتلك الفترة التي استلموني بها من أولئك الجنود قبل حوالي شهرين من الآن.

ففاجأني باقتراح حسبته حينها إنه من بشائر النصر بعونه تعالى وكان كذلك حتمًا.. عندما قال لي:

– إذا كنت تريد أن تنال حريتك من جديد فإنني أقترح عليك أن تكتب عريضة تعنونها إلى مكتب الإمام الخميني، وتشرح فيها بشكل مختصر جدًا ملابسات اعتقالك على شكل استرحام تطلبه من أجل إطلاق سراحك، لتعود لرفاقك ضمن تشكيلات مسعود البرزاني لتقاتل القوات الصدامية من جديد، ولا مانع من كتابتها باللغة العربية.. فهتف قلبي فرحًا وسرورًا وقلت في سري: مرحى يا عراق.. ثم قلت له من غير تردد:

– أعطني ورقة وقلمًا من فضلك لأكتبها..

وقلت بداخلي وربي يسمعني حينها وحاليًا: معذرة منك يا ضميري المعذب فالحرب خدعة، وإني لست مباليًا بالتفاصيل التي ستمكنني من تحقيق ذلك لكي أعود لوطني وأتخلص من ذلك الكابوس اللعين، وكان قسمًا مني وعهدًا علي لن أنكثه إذا ما نلت حريتي فعلاً، وهو عهد وميثاق شرف تقدمت به لرب العرش العظيم، ولست بمبالي من أجل تنفيذه حتى لو أدفع حياتي ثمنًا بخس في سبيل تحقيقه، حتى لو قطعوني إربًا إربًا عند وصولي لبغداد كما كان يشيع الخونة من خلال الدعايات التي يطلقونها على أن كل من ينوي الإقدام لنفس هذه الخطوة بالرجوع للعراق؛ يجب أن يضع بحساباته أنه سيعرض حياته للخطر الذي سينتظره في بغداد من قبل النظام الحاكم في العراق... لكني لم أعد مباليًا بما سيترتب على ما سيحدث لي في العراق بعد أن أصبحت أحمل أمانة

يجب أن أوصلها، بخصوص أحوال إخوتي الأسرى الذين لم يكن أحد في العراق يعرف عنهم أي شيء بالشكل الذي أطلعت أنا عليه، إضافة لمشاهداتي الأخرى في العمق الإيراني من التي مررت بها أثناء رحلتي هذه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فالعراق بيتي والعراقيون كلهم أهلي ومنهم أبناء شعبي الكوردي.

لذلك أخذت من المحقق ورقة وقلمًا وكتبت الآتي:

(إني المستضعف فلان الفلانت كنت قد جئت للجمهورية الإسلامية بالمهمة الفلانية، وحدثت معي المشكلة الفلانية، وأرجو إطلاق سراحي لكي أعود لمهمتي النضالية مع مجموعتي ضمن تشكيلات حليفكم مسعود البرزاني ودمتم للإسلام"..

لقد كتبت تلك العريضة لأني بعد أن فكرت سريعًا بالأمر لم أجد أمامي خيارًا آخر غير القبول الذي لن أضر به أحد من أبناء وطني، أو سأخسر فيه شيء أكثر من خسارتي لحريتي، وأنا تحت الحراب الفارسية والقهر اليومي الذي كنت أمر به يطحن بقلبي، والرفض طبعًا ستترتب عليه تبعات وأمور مجهولة النهايات.

وفي حقيقة الأمر إنني بإقدامي على ذلك التوجه؛ كانت نقطة تحول جوهري بمساري على الطريق الصحيح، وصولاً للحرية، بعد أن تعلمت الدرس وحفظته بشكل جيد، فالشفافية والصدق هي عنواني الدائم بكل حياتي السابقة واللاحقة، التي كنت ولا زلت أردد فيها مقولة إن النجاة في الصدق، وهي لا تنفع مع الأعداء، لأنني بذلك الموقف كنت بحالة استثنائية، لا تحدث مع أي من إخوتي الأسرى بنية الرجوع للوطن، باستثناء أولئك الخونة من القلة القليلة من الأسرى الذين باعوا شرفهم وانضموا للعدو الفارسي اللعين بصفة التوابين، ألا تبًا لهم وللحليب المسموم الذي رضعوه من ثدي أمهاتهم..

بعد أن أتممت كتابة العريضة وختمتها بتوقيعي أعطيتها لذلك المحقق الذي استلمها مني وانصرف، دون أن يتعهد لي بأي وعود زائفة بإطلاق سراحي كما كان يحصل معي بكل مرة، عندما ينتهي التحقيق معي من قبل كل المحققين الذين سبقوه... فاستبشرت خيرًا من ذلك التصرف، وأنبت أمري لخالقي مؤكدًا على عهدي الذي قطعته على نفسي بأنني لن أنقضه مهما كانت الظروف والمغريات، ومنها تقديمي اللجوء بغرض السفر لأوربا كما حصل مع الكثيرين من العراقيين أمثال صاحبنا سعيد، الذي التقيته بزنزانة مريوان وكان يروم بالهجرة للسويد.

ومرت علي أيام أخرى من القهر والإهانة والاستعباد والإذلال الفارسي اللعين، وأنا بين إخوتي الأسرى، وكنت قد نسيت ما كان من أمر تلك العريضة التي سلمتها لذلك المحقق، باعتبارها مهزلة أخرى من مهازلهم، والفرس كما وصفتهم سابقًا هم عباقرة بالدجل والكذب والتضليل، وكانت أيامًا صعبة وثقيلة لأن الوقت فيها كان يمر ببطء شديد، وكأنه كان كسيحًا يزحف على ركبتيه، وفي كل يوم كان يمر علي هناك؛ كنت أكتشف شيئًا آخر لم أمر بمثله بسابق حياتي.

وفي إحدى الأيام كانت مجموعة من الأسرى المرضى بنفس قفصنا قد ذهبوا إلى المستوصف الطبي الخاص بالأسرى بنفس معسكرنا؛ لغرض تلقي العلاج بسبب تعرضهم لنزلة برد حادة وكنت أحدهم، فخرجنا من القفص بمصاحبة مفرزة من الحراس لنا وتوجهنا إلى المستوصف الذي كان يبعد مسافة قصيرة، لأنه قبالة القفص، وهناك لكم أن تتصوروا كيف تمَّت معالجتنا؟ لقد عاملونا وكأننا حيوانات قذرة من خلال أسلوبهم الذي لم يخلُ من الاستهزاء بنا، ناهيكم عن التعالي وكأننا كنا نستجدي الحياة منهم، فالطبيب الإيراني الشاب كان يأمرنا بالوقوف بعيدًا جدًا عنه بحدود خمسة أمتار على الأقل عند سماعه إيانا

بما كنا نشتكي من ألم جسدي، بسبب تردي صحتنا، ولا زلت أذكر كيف أن إحدى الممرضات كانت قد عبرت عن اشمئزازها الشديد مني وهي تزودني ببعض حبات الدواء التي كانت هي علاجي، ولا زلت أذكر ملامح وجهها لأنها كانت تشبه الرجال من خلال حلقها لذقنها وهي حالة نادرة بين النساء بكل مكان، وكان بمعيتها ابنها الصبي الذي لم يكن قد تجاوز سن الثامنة من عمره، وهو يلعب بأرجاء ذلك المكان، فنظرت إليه بعطف وتذكرت طفولتي وكيف كنت بين أحضان أهلي أنعم ببراءتي وأنا نظيف الهندام والملبس مثله، وليس على الشاكلة البشعة والقذرة التي كنت عليها، وكأنني قد أصبحت بشكلي وأنا بالزي الكردي والذقن الطويل أقرب إلى سكان الكهوف، في الوقت الذي كانت والدته تنظر لي بقرف واشمئزاز، ولو كنت أجيد اللغة الفارسية مثلها لكنت قد قلت لها: أنا والله كنت على نفس شاكلة ابنك هذا، نظيفًا ومعتبرًا عند أهلي، ولكن ماذا أقول للزمن الذي جعلني هكذا وأنا بين أياديكم القذرة وأنتم تذيقونا مُرَّ العذاب؟! ... وصدق سيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ورضي الله عنه عندما قال: الدهر يومان يوم لك ويوم عليك فإن كان عليك فاصبر، وإن كان لك فلا تبطر، فكلاهما سينحر، والله يشهد فلقد كنا من الصابرين حتى يومنا هذا، الأمر الذي وصل بي ببعض المواقف التي عشتها بحياتي وخصوصًا عندما توفي ابني البكر نوروز الذي فارقنا ضمن قافلة المليون شهيد من أطفال وشيوخ العراق، نتيجة مرض عضال وهو ابن الثالثة عشر عامًا خلال أيام الحصار الجائر بعام ٢٠٠٠، قلت يومها بحرقة قلب: اللهم لا تجعلني ظالمًا ولا مظلومًا، لأني قبل ذلك التاريخ كنت دائم الترديد لدعاء: اللهم اجعلني مظلومًا ولا ظالمًا، لأني تعبت من الظلم حتى ولو كان على المستوى العائلي أو المهني أو الحياتي، فأنا لم أعد أطيق الظلم وأتحمل تبعاته القاسية بكافة أشكاله التعسفية...

عند خروجنا من ذلك المشفى البائس صادفنا فريق طبي من فريق الصليب الأحمر وهم بجولة تفقدية لذلك المشفى، الذي كان يضم الكثير من الأسرى المعوقين، وبعضهم قد عوق عمدًا من قبل الفرس، فاستوقفهم أحدنا وكان مدرسًا للغة الإنكليزية في العراق واسمه علي، وكانت لي معه علاقة ودية في الأسر، وعندها أخبر ذلك الفريق التفتيشي للصليب بلغته الإنكليزية السليمة عن عدم زيارة أي من فرق الصليب الأحمر لقفصنا على مدى العامين المنصرمين ومنذ بداية الحرب، فاهتم مفتشي الصليب بذلك الخبر لأنهم فعلاً لم يكونوا على علم بوجود ذلك القفص بلوائحهم، فأشار لهم الأسير علي بيده لمكان القفص، لقربه منا ثم رجعنا بعدها لندخل إلى القفص من جديد، وبعد حوالي الساعة كان فريق الصليب بباب القفص يبغي الدخول بغرض التفتيش، وعندها لم يأذن لهم الحراس بالدخول لعدم صدور الأوامر لهم من مراجعهم العسكرية بذلك، وتوعد أفراد الفريق الدولي بأنهم سيأتوا بصباح الغد وبيديهم الأمر بالدخول بغرض التفتيش، ثم انصرفوا عن المكان.

وبعد انصراف فريق الصليب الأحمر بدأت التحضيرات الشكلية من أجل تزويق القفص مؤقتًا باحتمال عودة المفتشين، وحضر آمر المعسكر بنفسه للإشراف على الاحتياجات الضرورية لنا ولو مؤقتًا، من تلك التي يجب أن تتوفر بأي قفص للأسرى وهذا يعني أننا كنا بذلك القفص على درجة سيئة للغاية من ناحية الخدمات الضرورية.. لقد كان آمر ذلك المعسكر لا تبدو عليه إمارات العنصرية أو الحقد الفارسي الأصفر، وكان برتبة عقيد أو سرهنك، بالفارسي يدعى عه زه مي، وهو اسم يلفظ بالعربية هكذا: عَزِمي، وعند دخول العقيد عزمي لقفصنا وقف عند البوابة مقابل استعلاماتها الداخلية في الممر الذي يوصل القاعتين ببعضها، وأعطى توجيهاته لرئيس الحرس المدعو إيرج ولصاحبنا الأسير المترجم أو الأرشد حلمي وهو من شرفاء العراقيين، وعند

إتمام توجيهاته؛ أدار ظهره للخروج فاستوقفه ذلك الخائن المدعو علي صبري الذي كان قد قتل رفاقه في جبهة القتال وسلم نفسه للآيات الفارسية الشيطانية اللعينة، وتمتم له ببعض الكلمات الفارسية التي كان عاكفًا على دراستها باستمرار، طالبًا من عقيد عزمي السماح له بمواجهته بمكتبه الخاص وعلى انفراد، ليشرح له موضوعه، فوجه عقيد عزمي كلامه إلى صاحبنا الأسير المترجم حلمي قائلاً: أفهمه أنني جئت هنا بغرض توفير ما ينقصكم من لوازم وليس من أجل سماع الشكاوى، ثم استدار ليخرج، ولكن ذلك الخائن الرخيص رمى بنفسه عند قدمي عقيد عزمي متوسلاً إياه أن يسمعه، فقال عقيد عزمي: حسنًا قل ما تشاء الآن ونحن بوقفتنا هذه، وحينها كانت جموع الأسرى من القاعتين قد تجمهرت ذات اليمين وذات الشمال من ذلك المكان، وهذا يعني أن كل الأسرى سيسمعون كلام ذلك الخائن بملئ أذانهم، فتكلم الخائن علي صبري وهو غير مبالي بتلك الجموع المصغية له، وصاحبنا الأسير حلمي يترجم له وكالآتي:

– إن الذي أريد أن أقوله لك يا سيدي هو إنني لست أسيرًا.

فقال العقيد عزمي:

– إذن كيف تصادف وجودك هنا؟ ألم يأتوا بك من جبهات القتال؟!

فقال الخائن التواب:

– نعم، ولكني كنت قد سلمت نفسي طواعية لكي ألبي نداء الإمام الخميني بعد أن سمعته عبر الأثير من خلال الراديو، وهو يحثنا على تسليم أنفسنا لنصبح ضيوفًا على الجمهورية الإسلامية، وهذا ما فعلته، فكيف أحتسب أسير حرب؟!

فقال العقيد عزمي أو سرهنك عه زه مي:

– كيف لنا أن نتأكد من أنك فعلاً كنت قد نويت تسليم نفسك طوعيًا كما تدعي؟

فقال علي صبري وهو غير مبال بجموع الأسرى المصغية إليه:

– لقد كنت ضمن خمسة من الجنود نقوم بالدورية الليلية على خط الجبهة التي أنا على إلمام بتضاريسها باعتباري من أهالي البصرة، وحينها كنا ننقل إحدى الأليات المدرعة، وعندما أصبحنا على مسافة قريبة من القوات الإسلامية فاتحت أولئك الجنود الذين كانوا معي من أجل أن نتفق على تسليم أنفسنا لإيران تلبية لنداء الإمام الخميني، فأبوا أن يفعلوا ذلك ونهروني بشدة، وعندها لم أجد أمامي إلا أن أقتلهم جميعًا وأقود العجلة تجاه القوات الإسلامية بعد أن رفعت راية بيضاء وأضئت المصابيح بإشارة واضحة لنيتي بتسليم نفسي تلبية لنداء الإمام، وبعد أن وصلت إليهم حاصروني وأمروني بالترجل من العربة، وعندها قبضوا علي بحجة أني قد ضللت الطريق ووقعت بأيديهم بالصدفة، ولكني أريتهم دليلي الذي أثبت صحة أقوالي وأخرجت إليهم جثث أولئك الجنود الأربعة الذين قتلتهم بداخل العجلة لأنهم رفضوا تلبية نداء الإمام، وعندها اقتنعوا بصدق نيتي، وأنا لا أكذب لأني متدين ومن أتباع آل البيت، وبعدها أخذوني معززًا مكرمًا إلى مقراتهم الخلفية وهناك التقيت بأخواتي المجاهدين من حزب الدعوة وفيلق بدر، وزودتهم بمعلومات مهمة بخصوص أماكن تواجد الألغام المزروعة على خط التماس لجبهة القتال، وعلى أثرها تمَّ تنفيذ هجومًا كانوا قد أسروا وقتلوا فيه الكثير من القوات الصدامية، وكان لي الفضل بنجاحه بدون أن يتكبدوا أية خسائر، وعلى أثر انتهاء ذلك الهجوم الذي ساعدتهم فيه، قيدتني القوات الإسلامية من الجيش الإيراني وأرسلوني إلى هذا القفص مع قافلة من الأسرى الذين وقعوا بأيديهم جراء ذلك الهجوم الذي ساعدتهم فيه، فهل يصح لهم أن يفعلوا بي ذلك؟ وهل ترى يا سيدي بعد كل هذا أني فعلاً أسير حرب، وأنا الذي لبيت نداء الإمام..

انتهى الاقتباس.. وهنا أنوه إلى أنني عندما كنت أنظر إلى وجه ذلك العقيد وهو يستمع إلى ذلك الخائن التواب، وجدته على درجة عالية من الاشمئزاز لما كان يسمع عن طريق الترجمة التي أدارها صاحبنا حلمي الذي بدوره كان حريصًا على ترجمة أقبح المفردات التي تفوه بها الخائن علي صبري، وبعد أن أكمل الخائن الرخيص ما كان يريد قوله من غير أي خجل يذكر سكت بانتظار جواب العقيد الإيراني وهو متبسم متفاخر، وكأنه قد أنجز ملحمة بطولية، فنظر إليه العقيد عزمي بازدراء وبصق بوجه ذلك الصعلوك قائلاً:

– إن زملاءك الذين قتلتهم كانوا جنودًا بسطاء دعيوا للخدمة العسكرية الإلزامية، وانساقوا ليأخذوا موقعهم فيها لأن بلدهم بحالة حرب وقتال، ولم يفعل أحدهم أي ذنب يتوجب منك أن تقتله بتلك البساطة سوى أنانيتك من أجل الحصول على دليل تدعم فيه أقوالك عندما تسلم نفسك لنا، فأي نوع من البشر أنت؟ ولو كنت أنا من وقعت بيده أول الأمر لقتلتك بالحال. كيف تريد منا أن نأمن جانبك بعد أن خنت وطنك؟!

عندها قاطعه الخائن بكل صلافة:

– ولكني لم أجد وسيلة أخرى أفعلها من أجل أن ألبي نداء الإمام.

فصرخ به العقيد عزمي بعد أن نفذ صبره:

– أي نداء تتكلم عنه؟ نحن والعراق بحالة حرب وليس كل ما يوجه في المذياع والإعلام هو حقيقي النية، ألم تكن لك دراية بذلك؟

كانت تلك هي أخر كلمات العقيد عزمي، لأنه خرج بعدها مسرعًا بعد سماعه لتلك الرواية المقرفة من ذلك الخائن. ولا يعيبني أن أنقل لكم وأنا صريح بطبعي أنني كنت قد حييت من كل قلبي ذلك الضابط الإيراني في سري، لأنه كان صاحب ضمير حي ووجدان يقظ وعدو شريف.. وعاد الخائن علي صبري

إلى مكان جلوسه يجر أذيال خيبته وهو يردد بصوت مسموع من أجل أن يبرر احتقار العقيد له قائلاً:

– إنه حتمًا من جماعة الشاه، ولا أدري لماذا استبقته الثورة الإسلامية هو وأمثاله للخدمة في الجيش الإسلامي؟ ولكني على ثقة أن الدور سيأتي عليه يومًا وستستأصله الثورة الإسلامية.

وأمام كل ما شاهدته وسمعته في إيران المللية من أهوال يشيب لها القلب قبل الرأس؛ هربت بي الذاكرة حينها إلى أيامنا الحلوة التي كنت قد قضيتها في العراق، وأين كان موقع ذلك الخائن علي صبري وأمثاله من وحدتنا وألفتنا ومحبة أحدنا للآخر، كعراقيين انصهرنا ببوتقة الوطن العراقي الذي كنا نعيش فيه جميعًا بكل ود وأخاء مع كل من هم حولنا من إخواننا العراقيين بكافة قومياتهم وأطيافهم، فما أشبه اليوم بالبارحة بعد أن تمكن أولئك الأشرار من تنفيذ مخططاتهم من غير أن أستبعد أن يكون ذلك الخائن علي صبري قد أصبح أحد عناوين ديمقراطية بوش المغمسة بالدم العراقي بهذه الأيام، إن كان قد بقي على قيد الحياة، والله أعلم...

في اليوم التالي من تلك الحادثة تمَّ فعلاً أخذنا إلى حمامات المعسكر بحسب ما وعدنا به العقيد عزمي، وخرجنا إلى ما وراء جدران ذلك القفص اللعين وكان يوميًا مميزًا، كانت الشمس فيه ساطعة على أثر نزول الثلوج أثناء الليلة الماضية، لأننا قد أصبحنا بوسط شهر ديسمبر ولم يبقَ لنا سوى أسبوعين وتنتهي سنة١٩٨٢، وذلك يعني أنني قد قضيت فترة لا تقل عن الشهرين منذ أن تمَّ اعتقالي بمريوان، حسبتها وكأنها كانت الدهر بكامله، لما شاهدته وعايشته وسمعته من أحداث لم أكن سأعيش مثل أيامها لو كنت قد قضيت عشرة أعوام متنقلاً بين كافة سجون العراق.

ذهبنا للحمامات ونحن تحت الحراسة المشددة، وكانت هي المرة الثانية لي وأنا أستحم منذ وصولي لإيران بأوائل الشهر العاشر أكتوبر، وهناك توزعنا كل ثلاثة منا للاستحمام تحت دوش واحد، فاغتنمت تلك الفرصة الثمينة لأغتسل سريعًا لأن الوقت كان محددًا بخمسة عشر دقيقة لكل مجموعة منا، وبذلك كنت قد أزلت عن كاهلي أحد همومي اليومية التي كنت أعاني منها بسبب تفشي القمل الذي عشعش بجسدي، ولدى رجوعنا إلى القفص وجدنا الحراس كانوا قد أزالوا كافة مظاهر التمثيلية التي أرادوا بها أن يغشوا مفتشين الصليب الأحمر، الذين يبدو أنهم سوف لن يعودوا ثانية لزيارة قفصنا، وهذا يعني أن أمر المعسكر قد توفق بإقناعهم أن ذلك القفص هو للتسفيرات فقط، ولن يبقَ الأسير فيه سوى أيام ليرحل بعدها لقفصه الثابت...

وبعد كل ذلك السقم الفارسي الذي عايشته مع إخوتي الأسرى المتواجدين في بذلك القفص اللعين بمعسكر دوژبان مركز الكائن وسط عاصمة الشر والعنصرية طهران.. إضافة لتلك الزنازين التي قضيت فترات فيها مع نزلائها من الجنود الإيرانيين المساجين، واطلاعي على أمور أخرى كشفت لي الوجه الآخر للفرس من داخل بيتهم الفارسي القبيح بتلك الفترة من تواجدي كأسير غير نظامي، الأمر الذي جعلني متيقن أن اعتقالي ببادئ الأمر بقضاء مريوان بالقرب من الحدود العراقية كان رحمة بحقي وليس نقمة عليَ، لأنه تسبب بإيقافي إلى ما كنت قد أنزلق إليه من مهانة وعار بحق نفسي وشرف عائلتي، وما تربيت عليه من مبادئ وطنية منذ نعومة أظفاري، إذا ما استمريت بالمضي لأعمل بالمكتب السياسي لحزبنا الذي هو بإيران، بعد أن تكشف لي وجهها البشع وأنا مع إخوتي الأسرى بأقفاص زنازينهم، فرب ضارة قد تكون نافعة ولو بعد حين.. وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم. صدق الله العظيم.

وفي هذا السياق أذكر ما كنت قد تكلمت به عما دار بيني وبين عراقي كوردي التقيته بزنزانة قضاء مريوان، وهو يعيب علي وطنيتي بسبب رفضي الانضمام لمجاميع الخيانة لما يدعوا بفيلق بدر وحزب الدعوة، في الوقت الذي أدعى فيه أنه قد تقدم بطلب اللجوء في إيران، ومنها سيتمكن من السفر إلى السويد ليصنع مستقبلاً زاهرًا له، وافترقنا حينها ليذهب هو إلى مجمع اللاجئين العراقيين بطهران، وأذهب أنا للتحقيق بمحافظة سنندج لدى مديرية الاستخبارات للجيش الإيراني المسمى بالاطلاعات، بتهمة التجسس عليهم، لأتلقى عواقب فعلتي بعدم الانضمام لأرتال الخيانة، فبعد فترة من تواجدي بقفص الأسرى، رمي إلينا بأسير جديد كان على حالة من التعب والإرهاق لدرجة يرثى لها، إلى الحد الذي مزقت ثيابه من على جسده نتيجة التعذيب في الزنازين الانفرادية للأسرى بنفس معسكرنا هذا، وقد تعرفت عليه بالحال، فهو نفس ذلك الشاب الذي تعرفت عليه بمريوان، فتقدمت إليه على الفور من أجل مساعدته وتأمين مكان لجلوسه بيننا ليستريح فيه، فهمس بأذني يرجوني أن أبتعد عنه لأنه يعرف التهمة التي كنت معتقلاً بسببها، ظنًا منه أن هناك من كان يراقبه إذا ما جلس بجواري وبالتالي سيناله بحسب اعتقاده، غضبًا مضافًا من الفرس عليه، أكثر مما ناله منهم من أذى على ما كان يبدو عليه بشكل واضح، وهو لا يعلم أن جميع المتواجدين من الأسرى العراقيين، هم بمحطتهم الأخيرة، وبالتالي لا أحد من المحققين يتابع ما نقوله أو نفعله، فتركته بعد أن أمنت له مكانه الجديد تفهمًا لمبتغاه واحترامًا لرغبته بحصوله على الطمأنينة التي قد تريح أعصابه المنهارة، ولم أفشِ سره لباقي إخوتي الأسرى وكأني لا أعرفه..

وبعد أيام وحين اطمئن الرجل من عدم وجود رقابة علينا حكى لي ما حصل له بعد أن فارقني في مريوان، فبعد وصوله إلى مجمع اللاجئين بطهران، أجرى

جميع الترتيبات الخاصة بتقديمه للجوء، وعلى أثرها تمَّ قبوله كلاجئ، بعد أن خضع لبرنامج غسيل الأدمغة الذي يتم بانتظام هناك، ثم بعد فترة أخرى تقدم بطلب لدى إدارة مجمع اللاجئين بمنحه إجازة لعدة أيام يسافر خلالها إلى قضاء مريوان الحدودي مدعيًا أنها بغرض زيارته لبعض أقاربه من الكورد العراقيين هناك... ومن هناك عَبَرَ الحدود إلى العراق مع بعض مهربي التموين والأغذية من أجل زيارة عائلته، التي كانت تنتظره بإحدى القرى الكوردية على الجانب العراقي، لحاجته لبعض الأموال التي سيستفاد منها بالضرورة في إيران، بغرض الهجرة إلى السويد، وفي طريق عودته لإيران تمَّ إمساكه عند الحدود، فادعى كذبًا أنه كان هاربًا من ظلم النظام في العراق، وجاء بقصد طلب اللجوء في إيران لأول مرة بعد أن غيَّر اسمه وباقي بياناته بالكامل، وعندها أرسلوه مغفورًا إلى مجمع اللاجئين بطهران كما حصل له في المرة الأولى وهناك تعرف عليه بعض الجنود العاملين بذلك المجمع، باعتباره كان قد قدم اللجوء قبل فترة بسيطة بنفس ذلك المجمع ثم هرب منهم، فتم إلقاء القبض عليه فورًا بعد أن صادروا تلك المبالغ المالية التي حصل عليها من أهله في العراق، ثم أرسل للتحقيق بالزنازين الانفرادية، والتي صاحبها التعذيب بكل قسوة لاتهامه أنه قد خرج من إيران بغية نقل ما جمعه من معلومات ليقدمها إلى السلطات الاستخبارية العراقية، التي بدورها زودته بالثمن المالي الذي ضبط بجيبه لحظة اعتقاله بحسب اعتقادهم، وقد اعترف أثناء التحقيق أنه كان جندي هارب من الخدمة العسكرية في العراق وتلك معلومة لم يذكرها في البيانات السابقة التي زودهم بها عند تقديمه للجوء في المرة الأولى، وعليه فإنهم قد اعتبروه أسيرًا لأنه قد مارس نشاط استخباري بزمن الحرب، لاعتقادهم أنه نقل المعلومات من إيران للعراق، والمسكين وإن كان يستحق ذلك، ناهيك أنه لم تكن لديه أدلة أو إثباتات توضح صحة أقواله كما فعلت أنا عندما ألصقوا بي نفس التهمة وادعيت

حينها أني أحد أفراد حلفائهم من حزب مسعود البارزاني وكنت صادقًا، ونجحت إلى حد ما في البداية حتى أخذ الموضوع منحى آخر من قبل الاستخبارات العسكرية الإيرانية بمحافظة سنندج، ثم حولت إلى قفص الأسرى العراقيين هذا، فتأسفت لما آلت إليه أحواله لأنه أولاً وأخرًا أحد أبناء بلدي العراق، ولم أتشمت به قطعًا باعتباره كان قد تسبب لي بالأذى النفسي في مريوان عندما وصفني بالمجنون على أساس إني لم أراعِ مصلحتي الخاصة، في حين تباهى أنه ذاهب ليتفرج على الشقراوات في السويد، ولأذهب أنا إلى الجحيم..

ولم تمضِ سوى أيام ونودي عليه من قبل الإدارة باسمه الحقيقي وكان يدعى سعيد، بغرض تسفيره إلى إحدى الأقفاص الثابتة للأسرى العراقيين الكائنة في الشمال الإيراني، فودعته بحزن شديد كحزني على نفسي، لأن الرجل لم يكن عميلاً للفرس ولم يتسبب بالأذى المباشر لي، وقد أذى نفسه لكونه لا يعدوا سوى إنسان جاهل ذو نزعة انتهازية، وحينها تعجبت كثيرًا لمفارقات الدنيا، فأين كان هذا الرجل يبغي الوصول؟ وإلى أي مستقر قد انتهى.

وفي نفس سياق الحديث عن تلك الحالات الفردية لبعض الأسرى لا يفوتني ذكر الناحية الأخرى للوجه الآخر للعراقي الحقيقي الذي هو شهم وشجاع، وذلك ما تجسد بالبطولة التي كان عليها أحد إخوتي الأسرى، لرجل يدعى حمدي جاسم هزاع، وهو الذي جعلنا جميعًا كأسرى نبدوا وكأننا أقزامًا بالقياس لما كان عليه من تحدي لأولئك الفرس الأنذال، ففي تلك الزنزانة اللعينة وبإحدى تلك الأيام السوداء أدخل علينا الحراس أحد الأسرى العراقيين من ذوي الشرف الرفيع والبطولات النادرة، وكان بحالة يرثى لها بسبب التعذيب الذي تلقاه في السجن الانفرادي، ولكنه لم يكترث لذلك الحال المرثي الذي كان عليه وكان يمشي بخطى واثقة بكل عنفوان ورجولة، بسحنته السمراء وهامته العالية ولهجته

البدوية أثناء الكلام، وكان من الأسرى القدامى بإحدى الأقفاص الثابتة خارج طهران، وقد علمت أن الفرس قد اقتادوه من قفصه إلى طهران بغرض التعذيب فقط وليس للتحقيق بأي أمر آخر، بل من أجل تأديبه وكسر شوكته لكي يرضخ لهم، ويصبح من الخانعين لسياستهم ومنهاجهم التعسفي اللئيم.

وكان ذلك الأسير البطل حمدي جاسم هزاع قد مكث معنا لخمسة أيام لم يذق فيها طعمًا للراحة أو الطمأنينة، وكذلك كان باقي الأسرى من الذين كانوا يتعاطفون وآلامه، وهو بانتظار تسفيره بغرض إعادته لقفص أسره بسبب قتاله الأعزل وحده ضد الجنود الإيرانيين، إضافة لما كان واضحًا عليه من تعب وإرهاق سابق، وكل ذلك بسبب إنه كان يرفض تلك الممارسات التعسفية والتسلطية والعنصرية بالإنتقاص المنظم الذي كان يمارسه الحراس على الجميع منذ الصباح الباكر وحتى حلول المساء، ولم يساوم أو يهادن الفرس وكأنه لا زال في العراق، وبسبب رفضه إياه فقد تلقى أشد وأقسى أنواع الضرب، بالعصي تارة وبالأيادي تارة أخرى، والرفس بالأرجل بأغلب الأحيان في قفصنا الذي مكث به لبضعة أيام حتى أرجعوه لنفس معسكر قفصه الثابت، على أثر تعليقه بالأصفاد من معصمي يده بإحدى القضبان العالية لإحدى الأبواب الحديدية، بسبب تمزيقه لصور الخميني، تلك المنتشرة على الجدران، واصفًا إياه بالدجال، على أثر مشادة كلامية مع أحد الحراس الذي كان يأمره باستهزاء أن يمسح بلاط الزنزانة كعقوبة له، لأن صاحبنا البطل مرَّ من أمامه ونظر إليه بشكل غير ودي، يعني عينه بعين الحارس، وتلك من الكبائر غير المسموح بها فارسيًا على الإطلاق.

وعلى الرغم من كل تلك الأنواع القاسية من العذابات كان صابرًا وشامخًا كالجبل الذي لا تهزه أية ريح صفراء مهما كانت، عاتية ولم تصدر منه حتى

صرخة ألم مكبوتة، بل على العكس فلقد تعمد أن يبتسم وهو في أشد عذاباته، وذلك هو السر الذي أثار غضب أولئك الحراس الأوغاد لأنهم تصوروا أن كل العراقيين على شاكلة ذلك الخائن علي صبري وأمثاله من الأوغاد، حتى إنهم عندما علقوه على قضبان تلك الباب الحديدية من معصمي يديه، تعمدوا تركه لفترة طويلة وهو معلق على أمل إنه سيتوسل لهم من أجل إنزاله أرضًا، ولكنه أبى إلا أن يبتسم والأصفاد التي علقوه بها قد أحدثت جرحًا بكلتا يديه، وانسال دمه الطاهر شأن حليبه الطاهر من موضع النزف بمعصميه، حتى وصل الدم لكتفيه وهو يهتف متباهيًا بعراقيته بأعلى صوته: (أنا العراقي.. أنا العراقي) الأمر الذي أجبر أولئك الحراس على إنزاله أرضًا بعد أن انتصر عليهم بإرادته الفولاذية، لقد كان أمر صموده على ذلك الشكل من التحدي صعبًا للغاية إلى الحد الذي اعتبرته متفوقًا حتى على من يصمد ضد الأعداء بخط المواجهة الأمامي وقذائف الحمم بكل أنواعها تسقط من حوله.

لقد كنت قريبًا منه عندما حصل ذلك المشهد الذي تقشعر له أبدان الشرفاء من أهل الغيرة، وحينها أدركت أن الولاء للعراق كوطن لا يقنن بالانتماء إلى هذا الحزب أو لتلك الطائفة أو لذلك المذهب، أو لأي معتقد آخر عرقي أو ديني... وأستطيع أن أجزم أن البطل المغوار حمدي جاسم هزاع كان بكل فخر وشرف عراقيًا صميمًا فقط لا غير، وكان مثلي الأعلى بتلك الفترة لأن قيم الرجولة تجسدت بقتاله الأعزل بمقارعة الفرس وهم بعقر دارهم، وكفى بالعراق وطن لعنوان تهتف له القلوب، وأستطيع أيضًا القول إنني بذلك القفص اللعين قد تعلمت من البطل حمدي جاسم هزاع ومن غيره من العراقيين الحقيقيين كيف يكون الحب والتفاني للأوطان، وكيف يجب أن يكون الرجال، لكي تليق بهم صفة الرجولة كعنوان، بل وأستطيع القول بكل صدق إنني قد تعلمت الوطنية

وحب الأوطان من الفرس الذين كانوا يجاهروا بفارسيتهم الخبيثة التي يتعالوا من خلالها على باقي القوميات والأمم بشكل عنصري مقيت..

هذا ما كان من حال إخوانكم الأسرى العراقيين في إيران، من الذي عايشته أو اطلعت عليه من خلال إخوتي الأسرى في ذلك القفص اللعين، وقد اختصرت منه الكثير في سردي هذا، بعد أن قفزت على بعض التفاصيل الحياتية اليومية التي كان الأسرى يشتكون منها، بسبب الظلم الذي يعانون منه جراء القسوة المفرطة للفرس أثناء التعامل معهم، لسبب أو من غير سبب..

ومن أجل أن أجعل الوقت يمضي بذلك المكان ونحن تحت حراب الفرس بذلك القفص اللعين، وقد أصبحت أشعر وكأن عجلة الزمن قد توقفت بنا عن الجريان، عكفت منذ بداية دخولي لقفص الأسرى على مطالعة الجريدة اليومية لإحدى الصحف الرسمية التي كانت توزع على أقفاص الأسرى بالنسخة العربية، لأنني أردت أن أفهم من خلالها طريقة تفكير الملالي الفارسية بإدارة شؤون الحياة، وقد أثار انتباهي ذلك المقال اليومي الذي كان يستعرض قراءة تاريخ الفتوحات الإسلامية، التي كنت ولازلت أطالعه بشغف كمادة علمية تستعرض التاريخ المشرف لأمة المسلمين الأوائل، الذين انضووا تحت لواء الإسلام المحمدي السمح، قبيل ظهور المذاهب وتفشي الفتن في تلك الأمة العظيمة التي نشرت السلم والسلام بدين الإسلام في أغلب بقاع العالم القديم، ولكني أردت أن أعرف من خلال تتبعي لتلك السلسلة من المقالات اليومية الكيفية التي يكتب بها الفرس لتلك الحقبة من التاريخ..

فتتبعتها بالرغم من التدليس والتزوير الملحوظ فيها، حتى جاء دور فتح بلاد فارس من قبل المسلمين العرب، الذين لم يذكر الكاتب اسم لهم فيها منذ بداية تلك المقالات المتسلسلة، ومن غير أن يتطرق أيضًا لمعركة القادسية التي تكللت

بالنصر على الفرس المجوس حينها وسقوط عرش كسرى وإطفاء نار مجوسيتهم، وكأنَ القوم يخجلوا من ذكر تلك الواقعة التي تمَّت بزمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعليه السلام، أو كأنها كانت نقطة سوداء بسجل تاريخ أجدادهم المجوس، والمتتبع لتلك السلسلة من المقالات سيجد نفسه بالتأكيد أمام إيحاء من كاتبها، وكأن كل تلك الفتوحات الإسلامية قد انطلقت من بلاد فارس، لأن الكاتب لم يشر إلى العرب بالاسم على طوال سرده اليومي بتلك الصحيفة لذلك التاريخ، واكتفى بتسميته لأولئك الفاتحين بالمسلمين فقط، حتى قفز أثناء السرد على فتح بلاد فارس لأنه لم يذكرها أبدًا.. وعَبرَ بالقراء لفتح بلاد الهند والسند وحتى حدود الصين بعد أن استعرض فتح مكة كبداية ثم فتح بلاد الشام ثم مصر فالمغرب العربي وصولاً إلى الأندلس، والسؤال هنا لكل عاقل كان قد اطلع على تلك الخزعبلات: إذن من فتح بلاد فارس؟ وكيف أصبح الفرس مسلمين؟!

واستناد لكل ما تقدم؛ فإنني استنتجت أن السبب الكامن وراء تأليفهم لتلك الروايات الهزيلة والبغيضة التي يتهجمون بها على فاتح بلادهم وتخليصهم من مجوسيتهم، وقد اطلعت على قسم كبير منها من خلال نفس تلك الصحيفة الرسمية الصفراء، لأنهم لا يعتبرونه فاتح عندما تعرضوا للهزيمة التي منيوا بها بعهد خلافته، ودليل ذلك – ونحن هنا نتكلم تاريخ ولسنا من الطائفيين والحمد لله ومن أفواههم ندينهم – تعظيمهم لقاتله أبي لؤلؤة المجوسي الذي يسمونه باللغة الفارسية بابا شجاع، وبجعل قبره مزارًا للناس في أيامنا هذه بظل ورعاية حكم الجمهورية الإسلامية، التي تدعي زورًا أنها تدافع عن شؤون المسلمين بكل مكان، وكأنه أحد المراقد الشريفة للأمة الأطهار، ورجال الله الصالحين التي تزار في إيران قبل التوجه لزيارة العتبات المقدسة بكربلاء والنجف، ومن ثم لمن يبغي التوجه بنية الحج إلى مكة المكرمة.

وعليه فإنني وجدت نفسي أمام كل ما قرأته من تلك الكتابات المشوهة والروايات السخيفة المدلسة وغيرها من تلك الأفعال المشينة من التي أطلعت عليها؛ مجبرًا أن أستنتج الآتي: أن هؤلاء الفرس يعيشون بمجتمع مريض بسبب تسميم ملاليهم المشعوذين لأفكارهم، نتيجة جهل البسطاء منهم للغة العربية وهي لغة القرآن الكريم وبالتالي فهم حتمًا بحاجة لمن يعلمهم أصول الدين الإسلامي، وتكفلت الملالي الفارسية بدلاً من ذلك، بتلقينهم طقوس عجيبة وغريبة ما أنزل الله بها من سلطان، وكأنها تعاليم لدين آخر غير الإسلام، وحال الحاجة بالتعليم لأصول الدين هو نفس حال باقي الأقوام الأخرى التي لا تنطق اللغة العربية أو تفهم معانيها، ومنها الكوردية والهندية والأفغانية والتركية وغيرها من الملل في بلاد المسلمين، وبذلك فملاليهم يحشوا أفكار المتلقين لخطابهم بما تشتهي أنفسهم الخبيثة، وليس كما جاء من نهج سمح لكلام الله عز وجل في القرآن الكريم.

ناهيكم على أن الفرس بمجملهم يعيشون الأوهام بدرجة عالية من مرض انفصام الشخصية المركب ما بين ولائهم المطلق لقوميتهم الفارسية، وبين تظاهرهم بالولاء للدين الإسلامي، الذي أدخلوا عليه ما طابت له أنفسهم وما تهواه عقولهم المريضة، عندما حذفوا منه ما يدعوا للتآخي والمودة والعيش المشترك بسلام مع باقي المسلمين، أو ما قد يبعدهم عن ولائهم الحقيقي لعنصرهم الفارسي، حتى تمكنوا أن ينفردوا بنوع خاص من طقوس التدين الذي ابتدعوه عن طريق الإضافة والحذف، من أجل عدم ذوبان الفرس بنسيج الإسلام الذي يتبعه أكثر من مليار مسلم، وهذا يعني أيضًا أن دينهم الإسلامي هو دين آخر يشبه دين الإسلام الحقيقي بالاسم فقط، ونفس هذا الأمر ينسحب على ادعاءهم أنهم من شيعة سيدي الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام، وهم في الحقيقة على مذهب آخر مبتدع سُمي بالصفوي، ويشبه بالاسم فقط مذهب سيدي الإمام جعفر الصادق عليه السلام الذي يتبعه ويطبق تعاليمه

السمحة العرب الشيعة، قبل أن يغيروا الفرس مذهبهم السني ليصبحوا شيعة صفويين بعدهم بمئات السنين وهم العرب الجعفريين، ومنهم من هو فعلاً الحفيد الحقيقي لأهل بيت رسولنا الكريم، وليس أي فارسي نتن اعتمر العمامة السوداء ويدعي تبجحًا أنه منهم.

ومثال ازدواجية الفرس بتلك المعايير؛ هي أنهم في الوقت الذي هم يجاهرون بعدائهم للعرب، فإن أحدهم يُدهَش عندما تُخبره أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعليه السلام هو قرشي عربي مكي من أمة العرب.. هذا هو تفسيري المتواضع لذلك الحال الذي وجدت الفرس عليه، من خلال مشاهداتي التي تبحرت وغصت بأعماق مسبباتها آنذاك، بالرغم من أنني علماني التوجه بنهج حياتي العامة ولكني موحدًا لله عز وجل بوجداني، وطنيًا بولائي لوطني، قوميًا حتى النخاع لكورديتي، وأعتبر أن اتهامي بالطائفية سبة شنيعة لي لأنها مبعث ازدراء وعنوان للتخلف، ولا بأس أن أتهم بالكفر بالمقارنة مع الطائفية، لأن أمري حينها سيوكل لربي ورب الخلق أجمعين، وسبحانه خير من يعلم بما تجود به صدور عباده المخلصين..

واستنادًا لكل ما تقدم من قول فإني كنت أنظر للموضوع من زاوية كوني مراقبًا لظاهرة شاذة، كانت تحتاج إلى التأمل والتفكر بغية التعرف على حقيقة أولئك القوم المارقين، وفي زاوية أخرى من تلك الصحيفة الصفراء كانت هناك صفحة خاصة تدعى بمكتب الإمام، والمقصود بذلك هو استعراض النشاطات الخاصة بالخميني.. وفيها تذكر كل أقواله التي يصرح بها بخطاباته للشعوب الإيرانية ونصائحه، أو بالأحرى أوامره للحكومة الإيرانية، وكذلك سرد تفاصيل كل ما يراه في أحلامه أثناء نومه، وهي خزعبلات مضحكة لا تنطلي حتى على الأطفال في العراق، في حين أن تلك الصفحة بتلك الصحيفة النتنة كانت تذكر أيضًا جميع تحركات الخميني أثناء زياراته أو استقباله لزواره، وخلاصة القول

فإنني وجدت أن جميع ما كتب بتلك الصحيفة الصفراء كان بقصد غسل دماغ قرائها، وهو كلام لا يستحق الالتفات إليه حتى من بعيد، ولكن ماذا أفعل والزمن قد أوشك أن يتوقف بذلك القفص اللعين، وإلا فمالي وتلك الترهات والسخافات التي كانت تبعث بالأشمئزاز لكل إنسان يحترم عقله عندما يطلع على تلك الجيف من الكلمات..

ناهيك عن مشروعهم بغسيل الأدمغة الذي لم يكتفِ بتلك الصحيفة وحسب؛ فهناك الكتب التي بالإمكان استعارتها من إدارة القفص، التي يسمونها تهكمًا أنها دينية وهي مطبوعة باللغة العربية، وقد دفعني الفضول مرة للاطلاع على ما تحتويه تلك الكتب، فاخترت أن أقرأ ما كان يشار له بأنه أعظمها عندهم وهو كتاب لأحد العمائم الفارسية ويدعى بهشتي، وهو الملقب عندهم حينها بمفكر الثورة، فتصفحته على أمل أن أفهم حقيقة هؤلاء القوم أكثر وأكثر، من خلال ما يصرح به مفكرهم على الأقل، فوجدت فيه كلمات لحروف عربية جمعت لتصبح سطور، ثم صفحات، ثم كتاب ضخم لا يعرف أوله من أخره، ولكن من غير معنى.. نعم من غير معنى لأني لم أفهم جملة مفيدة واحدة مما كان مكتوبًا، وكأني لا أعرف أبجدية اللغة العربية أو جاهل بمعانيها، فقد كان يحوي على كلمة مجاورة لأخرى... إلخ من الكلمات، دون تجانس بالربط بين كلمة وما كان يجاورها من كلمات أخرى، وذلك لا يعطي أي معنى لقارئها، وكأن المقصود كان إتاهة القارئ ليظل بحيرة من أمره! أو لجعله يشعر أنه جاهل وأن ما قرأه فوق مستوى تفكيره، وعدم قدرة عقله على التجميع والفهم!!

هذا كل ما كان يطرح من مطبوعات تدخل إلى أقفاص أسر إخواني الأسرى بغاية ما يسمى بغسيل الأدمغة، وهي باعتقادي سياسة غير موفقة، لأن المتلقي

كان عراقي على درجة من الوعي الفطري، حتى وإن كان غير مثقف، ولأنه نشأ وتربى في بيئة مختلفة عن ما تربى عليه الفرس، والموضوع برمته كان يطرح سؤالاً واحدًا هو: هل بالإمكان غسيل أية مادة بقصد إعطائها درجة أعلى من النظافة عندما يتم غسلها بالمياه الآسنة القذرة؟! الجواب طبعًا هو كلا، لا يمكن لنا ذلك، لأننا حينها سنحصل على مادة ملوثة لا تنفعنا بأي شيء، وذلك هو ما كان ينطبق علينا كعراقيين نحترم عقولنا المتنورة، وإن كنا تحت رحمة أولئك المجانين الجهلة، حتى أنني أستطيع الجزم أن تلك القلة القليلة من الأسرى الانتهازيين أو المهووسين بالطائفية، من الذين أدعوا أنهم قد استجابوا لمثل تلك الترهات والخرافات، فهم بحقيقتهم كانوا على يقين أن تلك الأفكار الفارسية هي مجرد كلام فارغ لا قيمة له ولا مصداقية بطرحه، ولكنهم أدعوا بأنهم من المؤمنين والمصدقين لها من أجل تدعيم منافعهم الشخصية، وما أكثرها...

وفي إحدى بدايات تلك الصباحات السوداء، عندما كانت قاعتي ققصنا قد ضاقت بالأسرى بسبب كثرة أعدادهم المتزايدة بكل يوم، وبالتالي لا بد من توزيعهم على باقي الزنازين الثابتة الأخرى، من التي هي منتشرة في الوسط والشمال الإيراني فقط، ولا توجد لها معسكرات تضمهم في الجنوب العربستاني، والأسباب معروفة لأنها كانت مناطق قتال ساخنة، فنودي في البداية بأسماء المعسكرات التي قدم منها بعض الأسرى من الذين جاءوا لمراجعة المستوصف الطبي أو للتعذيب في الأقفاص الانفرادية، وكان إخوتي الأسرى من تلك المعسكرات يخرجوا عند سماعهم لاسم معسكرهم الذي قدموا منه، ومن ثم نودي على أسماء الآخرين من إخوتي الأسرى الذين تمَّ أسرهم حديثًا ليوزعوا على معسكراتهم الجديدة، وقد تردد اسمي لعدة مرات ولم أنتبه لذلك لأني كنت قد نسيت اسمي هشام الذي استبدلته باسمي البيشمركياتي (سه ر جل) خشية

من وشاية البعض من ضعاف النفوس الذين يتصيدوا الفرص من أجل الفوز بكسرة خبز، فنبهني صديقي حلمي لذلك، وذهبت لإدارة القفص لأستلم أغراضي التي كانوا قد احتفظوا بها في الأمانات بأول دخولي للقفص، وكانت عبارة عن بعض القطع من الزي الكوردي الذي كنت ألبسه، إضافة لجعبة كتف صغيرة فيها أدوات الحلاقة وبعض قطع الملابس الاحتياطية، وبعد استلامي إياها خرجت إلى ساحة السجن بخارج زنزانة القفص، حالي حال باقي إخوتي الأسرى، وعندها شعرت بأني قد فقدت أية فرصة كنت أخطط لها بالنجاة من ذلك الكابوس اللعين وأخرها كانت تلك الفرصة التي عرضت علي من قبل المحقق قبل فترة وذهبت بأدراج الرياح كما توقعت حينها.

وبعد أن اكتملنا جميعًا خارج الزنزانة؛ تمَّ عزلنا على شكل مجاميع صغيرة كل حسب معسكره السابق، وللأسرى الجدد كان هناك عزل لهم عن باقي الأسرى، وكنت أنا أحد الأسماء من تلك المجموعة من غير أن يعلم أحد منا إلى أي من المعسكرات سنوزع؟ حتى تمَّ تسفير جميع الأسرى مجموعة تلو الأخرى إلى أماكن متفرقة من تلك المعسكرات، البعيدة والقريبة من طهران، وبقيت أنا وحدي وقد انتصف النهار حينها، بعد تلك الفترة التي كنا فيها وقوفًا بتلك الساحة المكشوفة، في ذلك الوقت الذي كان فيه الطقس بارد جدًا، ونحن في الأسبوع الأخير من تلك السنة ١٩٨٢، دون أن أعلم بوجهتي التي سأسفر إليها، حتى اقتادني الحراس وذهبت معهم مطيعًا لأمرهم، من غير أن أسال عن الوجهة التي سيأخذوني إليها، لأن التجربة علمتني أن الصبر مطلوب بمثل تلك المواقف حتى يتبين لي الموضوع من تلقاء نفسه.

أخذوني لإدارة المعسكر ومن هناك أرسلوا بطلب عجلة عسكرية لكي تنقلنا لمعسكر بداخل طهران يدعى شهيدان، وانطلقت بنا العجلة بشوارع طهران

بوقت الظهيرة المزدحم، وكانت فرصة ثانية لي لمشاهدتها عن كثب بعد أن شاهدتها على عجل أثناء قدومي لها قبل أكثر من شهرين، لكي أتفحص وجوه الناس مرة أخرى، فوجدتها شاحبة وكئيبة، وشبح الموت كان يخيم على تلك الأجواء بكل المشاهد التي كنا نمر بها ببطء شديد بسبب زحمة السير فيها، ولم تمضِ سوى أكثر من ساعة على خروجنا من معسكر دوژبان مركز، حتى وصلنا إلى معسكر إيراني يدعى شهيدان، وسلموني لإدارة السجن التي بدورها أودعتني بزنزانة منفردة بانتظار الصباح، وفي الصباح علمت أنهم سيسلموني لحراسي الجدد الذين سينطلقوا بي هذه المرة إلى محافظة بأقصى الشمال الإيراني، والملاصقة للحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتي آنذاك، لمدينة تدعى الرضائية القريبة من بحيرة أرومية، والحقيقة أنا لم أندهش لتلك النقلة، وإن فاجأتني على حين غرة، وكنت قد تمنيت لو بقيت بطهران لفترة أطول بانتظار ما كانت تلك العريضة ستسفر عنه، عندما تقدمت بها على شكل استرحام لرأس الشر بإيران، لأن القادم هو أمر مجهول، ذلك لعدم معرفتي بأحوال القفص الذي سأسفر له بأقصى الشمال الإيراني.

وفي عصر نفس ذلك اليوم بمعسكر شهيدان؛ استلمني حراسي الجدد الذين على ما كان يبدو أنهم قد قدموا من معسكر آخر وكانوا أربعة، وكان بحوزتهم اثنين من الشبان، الذين يبدو عليهم أنهم بحالة عقلية غير طبيعية، أو هكذا كانوا هم يدعون لسبب أو لآخر، وتم ربط يدي اليمنى بأحدهم وربطت يدي اليسرى بالآخر بالأصفاد، ودُفعنا بداخل عربة جيب عسكرية وخرجنا من ذلك المعسكر، وكانت الثلوج قد تساقطت بشكل مكثف بذلك المساء ونحن متوجهين بطريقنا إلى الكراج المركزي للنقليات بطهران.